سلسلة إصدارات الكتب (١)

تعظيم الله ومحبته في كلام ابن القيم

جمع وترتيب



سلسلة إصدارات الكتب (١)

تعظيم الله ومحبته في كلام ابن القيم

جمع وترتيب



ⓗالمكتب التعاوني للدعوة وتوعية الجاليات بالنسيم ، ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المكتب التعاوني للدعوة وتوعية الجاليات بالنسيم
تعظيم الله ومحبته في كلام ابن القيم. / المكتب التعاوني
للدعوة وتوعية الجاليات بالنسيم .- الرياض ، ١٤٤٠هـ

..ص ؛ ..سم

ردمك: ١-١-٩٠٤٥٣-٦٠٣-٩٧٨

١- التوحيد ٢- الايمان (الاسلام) أ.العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٤٠/١٠٣٩٣

رقم الإيداع: ١٤٤٠/١٠٣٩٣
ردمك: ١-١-٩٠٤٥٣-٦٠٣-٩٧٨

للحصول على نسخ من الكتاب أو لطباعته للتوزيع الخيري،
يرجى التواصل على أحد العناوين التالية:

هاتف/واتس آب: ٠٠٩٦٦٥٠٩٦٨٧٥٤٤

بريد إليكتروني: honouringallah@gmail.com

تويتر: @honouringallah

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

يطيب لإخوانكم في (مشروع تعظيم الله تعالى) أن يضعوا بين أيديكم أول إصدارات المشروع من (سلسلة الكتب)، وهو هذا الكتاب الموسوم بـ (تعظيم الله ومحبته في كلام ابن القيم)، والذي يحوي (٤٤) نقلاً استخرجت من كتب ابن القيم رحمه الله.

ونحسب أن عددًا من القراء الأكارم عندما يطّلعون على مادة الكتاب سيرون مدى حاجتنا الماسة لها، بل قد يشعرون - كما شعرنا - أننا نعيش في هذه الدنيا ولم نذق بعدُ أطيب وأجمل ما فيها؛ ألا وهو معرفة الله جلّ جلاله حق المعرفة، والأنس به، وإعمار القلب بمحبته.

ولهذا صدر هذا الكتاب بهدف إتاحة مادة ثرية للدعاة والمربِّين وغيرهم عن تعظيم الله في النفوس، لعلها تُسهم في مزيد عناية بهذا الموضوع، وتضمينه في خطابهم العلمي والدعوي وتربية الناس عليه، وبالتالي تعزيز هذه الشعيرة العظيمة القدر في المجتمع لكونها من أعظم أسباب الاستجابة لأوامر الله عز وجل والبعد عن معاصيه.

واللهَ نسألُ أن يضع القبولَ والنفع بهذا الكتاب، وأن يجزي كلَّ من قرأه، أو أسهم في نشره الفردوسَ الأعلى من الجنة.

إخوانكم في مشروع

تعظيم الله تعالى

(١) إذا كبّر المصلي

وافتتاحها - أي الصلاة - بكلمة جامعة لمعاني العبودية، دالة على أصول الثناء وفروعه، مخرجة من القلب الالتفاتَ إلى ما سواه والإقبال على غيره، فيقوم بقلبه الوقوف بين يدي عظيم جليل كبير، أكبر من كل شيء، وأجلّ من كل شيء، وأعظم من كل شيء، تلاشت في كبريائه السماواتُ وما أظلت، والأرضُ وما أقلت، والعوالمُ كلها، عنت له الوجوه، وخضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، قاهر فوق عباده، ناظر إليهم، عالم ما تُكِنُّ صدورهم، يسمع كلامهم، ويرى مكانهم، ولا يخفى عليه خافية من أمرهم.

ثم أخذ في تسبيحه وحمده وذكره، تبارك اسمه وتعالى جَدّه، وتفرد بالإلهية.

ثم أخذ في الثناء عليه بأفضل ما يثنَى عليه به من حمده وذكر ربوبيته للعالم، وإحسانه إليهم ورحمته بهم، وتمجيده بالملك الأعظم في اليوم الذي لا يكون فيه ملك سواه، حين يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ويدنيهم بأعمالهم.

ثم إفراده بنوعي التوحيد: توحيد ربوبيته استعانة به، وتوحيد إلاهيته عبودية له.

ثم سؤاله أفضل مسؤول وأجل مطلوب على الإطلاق، وهو هداية الصراط المستقيم الذي نصبه لأنبيائه ورسله وأتباعهم، وجعله صراطًا موصلاً لمن سلكه إليه وإلى جنته، وأنه صراط من اختصهم بنعمته بأن عرّفهم الحق وجعلهم متبعين له، دون صراط أمةِ الغضب الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه، وأهلِ الضلال الذين ضلوا عن معرفته واتباعه.

فتضمنت . أي سورة الفاتحة . تعريف الرب، والطريق الموصل إليه، والغاية بعد الوصول، وتضمنت الثناء والدعاء وأشرف الغايات وهي العبودية، وأقرب الوسائل إليها وهي الاستعانة، مقدمًا فيها الغاية والوسيلة، والمعبود المستعان على الفعل إيذانًا بالاختصاص، وأن ذلك لا يصلح إلا له سبحانه.

وتضمنت ذكر الإلهية والربوبية والرحمة، فيثني عليه ويعبد بإلهيته، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويدبر الملك، ويضل من يستحق الإضلال، ويغضب على من يستحق الغضب بربوبيته وحكمته، وينعم ويرحم، ويجود ويعفو ويغفر، ويهدي ويتوب برحمته.

فلله كم في هذه السورة من أنواع المعارف والعلوم والتوحيد، وحقائق الإيمان.

[من كتاب: شفاء العليل]

(٢) إذا ركع المصلي ورفع

يركع حانيًا له - سبحانه . ظهره خضوعًا لعظمته وتذلّلاً لعزته واستكانةً لجبروته، مسبّحًا له بذكر اسمه العظيم، فنزَّه عظمته عن حال العبد وذلّه وخضوعه، وقابل تلك العظمة بهذا الذّل والانحناء والخضوع، قد تطامن وطأطأ رأسه، وطوى ظهره، وربُّه فوقه يرى خضوعه وذلّه ويسمع كلامه، فهو ركنُ تعظيمٍ وإجلالٍ كما قال ﷺ: «... فأمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فيه الرَّبَّ ...»[١].

ثم عاد إلى حاله من القيام، حامدًا لربه مثنيًا عليه بأكمل محامده وأجمعها وأعمّها، مثنيًا عليه بأنه أهل الثناء والمجد، معترفًا بعبوديته شاهدًا بتوحيده، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وأنه لا ينفع أصحابَ الجدود والأموال والحظوظ جدودُهم عنده. ولو عَظُمت..

[من كتاب: شفاء العليل]

---

(١) أخرجه مسلم (ح٤٧٩).

(٣) إذا سجد المصلي

يَخِرُّ له (سبحانه) ساجدًا على أشرف ما فيه وهو الوجه، فيُعفِّره في التراب ذُلاً بين يديه ومسكنةً وانكسارًا، وقد أخذ كلُّ عضو من البدن حظَّه من هذا الخضوع، حتى أطراف الأنامل ورؤوس الأصابع.

وندب له أن يسجد معه ثيابُه وشعرُه فلا يكُفُّه، وأن لا يكون بعضُه محمولاً على بعض، وأن يباشرَ الترابَ بجبهته، وينالَ ثِقَلَ وَجهِ المُصَلَّى، ويكون رأسه أسفلَ ما فيه تكميلاً للخضوع والتذليل لمن له العز كله والعظمة كلها، وهذا أيسر اليسير من حقه على عبده، فلو دام كذلك من حين خُلق إلى أن يموت لما أدى حق ربه عليه.

ثم أُمِرَ أن يسبح ربه الأعلى، فيذكر علوَّه سبحانه في حال سفوله هو، وينزهه عن مثل هذه الحال، وأن من هو فوق كل شيء وعالٍ على كل شيء ينزَّه عن السفول بكل معنى، بل هو الأعلى بكل معنى من معاني العلو، ولما كان هذا غاية ذل العبد وخضوعه وانكساره كان أقرب ما يكون الرب منه في هذه الحال، فأمر أن يجتهد في الدعاء لقربه من القريب المجيب، وقد قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ١٩﴾ [العَلَق: ١٩].

[من كتاب: شفاء العليل]

(٤) السجود ركن الصلاة الأعظم

السجود سِرّ الصلاة وركنها الأعظم وخاتمة الركعة، وما قبله من الأركان كالمقدمات له، فهو شبه طواف الزيارة في الحج، فإنه مقصود الحج ومحل الدخول على الله وزيارته، وما قبله كالمقدمات له ولهذا أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وأفضل الأحوال له حال يكون فيها أقرب إلى الله، ولهذا كان الدعاء في هذا المحل أقرب إلى الإجابة.

ولمّا خلق اللهُ ـ سبحانه ـ العبدَ من الأرض كان جديرًا بأن لا يخرج عن أصله، بل يرجع إليه إذا تقاضاه الطبع والنفس بالخروج عنه، فإن العبد لو تُرك لطبعه ودواعي نفسه لتكبَّر وأشِرَ وخرج عن أصله الذي خُلق منه، ولوثب على حق ربه من الكبرياء والعظمة فنازعه إياهما. وأمر بالسجود خضوعًا لعظمة ربه وفاطره وخشوعًا له، وتذللاً بين يديه وانكسارًا له، فيكون هذا الخشوع والخضوع والتذلل ردًا له إلى حكم العبودية، ويتدارك ما حصل له من الهفوة والغفلة والإعراض الذي خرج به عن أصله، فتمثل له حقيقة التراب الذي خُلق منه وهو يضع أشرف شيء منه وأعلاه وهو الوجه، وقد صار أعلاه أسفلَه

خضوعًا بين يديْ ربه الأعلى، وخشوعًا له وتذللاً لعظمته، واستكانةً لعزته، وهذا غاية خشوع الظاهر، فإن الله سبحانه خلقه من الأرض التي هي مُذللة للوطء بالأقدام، واستعمله فيها ورده إليها، ووعده بالإخراج منها، فهي أمه وأبوه، وأصله وفصله، فضمَّته حيًا على ظهرها، وميّتًا في بطنها، وجُعلت له طهرًا ومسجدًا، فأُمر بالسجود إذ هو غاية خشوع الظاهر، وأَجْمَعَ العبوديةِ لسائر الأعضاء، فيُعفِّر وجهه في التراب استكانة وتواضعًا وخضوعًا، وإلقاءً باليدين.

قال مسروق لسعيد بن جبير: (ما بقي شيء يُرْغَبُ فيه إلّا أن نُعفِّر وجوهنا في التراب له).

وكان النبي ﷺ لا يتقي الأرض بوجهه قَصْدًا، بل إذا اتفق له ذلك فعله، ولذلك سجد في الماء والطين.

[من كتاب: الصلاة وحكم تاركها]

قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البَقَرَة: ٤٥ - ٤٦].

فإنما كَبُرَت على غير هؤلاء لخلوِّ قلوبهم من محبة الله تعالى وتكبيره وتعظيمه والخشوع له، وقلة رغبتهم فيه؛ فإن حضورَ العبد في الصلاة وخشوعَه فيها وتكميلَه لها، واستفراغَه وسعه في إقامتها وإتمامها على قدر رغبته في الله. قال الإمام أحمد في رواية مهنا بن يحيى: إنما حظهم من الإسلام على قدر حظهم في الصلاة، ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة.

فاعرف نفسك يا عبد الله، واحذر أن تلقى الله عز وجل ولا قَدْرَ للإسلام عندك، فإن قَدْرَ الإسلام في قلبك كقَدْر الصلاة في قلبك.

وليس حظ القلب العامر بمحبة الله وخشيته والرغبة فيه وإجلاله وتعظيمه من الصلاة كحظ القلب الخالي الخَرِب من ذلك، فإذا وقف الاثنان بين يديّ الله في الصلاة، وقف هذا بقلب مُخبت خاشع له، قريب منه، سليم من معارضات السوء، قد امتلأت أرجاؤه بالهيبة، وسطع فيه نور الإيمان، وكشف عنه حجاب النفس ودخان

الشهوات، فيرتع في رياض معاني القرآن، وخالط قلبه بشاشة الإيمان بحقائق الأسماء والصفات وعلوها وجمالها وكمالها الأعظم، وتفرد الرب سبحانه بنعوت جلاله، وصفات كماله، فاجتمع همّه على الله، وقرّت عينه به، وأحس بقربه من الله قربًا لا نظير له، ففزع قلبه له، وأقبل عليه بكُلِّيَّته، وهذا الإقبال منه بين إقبالين من ربه فإنه سبحانه أقبل عليه أولاً فانجذب قلبه إليه بإقباله، فلما أقبل على ربه، حظي منه بإقبال آخر أتم من الأول.

[من كتاب: الصلاة وحكم تاركها]



(التلبية) متضمنة للإخبار عن اجتماع الملك، والنعمة، والحمد لله - عز وجل -، وهذا نوع آخر من الثناء عليه غير الثناء بمفردات تلك الأوصاف العليَّة، فاجتماع الملك والحمد، من أعظم الكمال، والملك وحده كمال، والحمد كمال، واقتران أحدهما بالآخر كمال، فإذا اجتمع الملك المتضمن للقدرة مع النعمة المتضمِّنة لغاية النفع والإحسان والرحمة مع الحمد المتضمن لعامة الجلال والإكرام الداعي إلى محبته كان في ذلك: من العظمة، والكمال، والجلال، ما هو أولى به، وهو أهل له، وكان في ذكر العبد له ومعرفته له من انجذاب قلبه إلى الله وإقباله عليه، والتوجّه بدواعي المحبة كلها إليه ما هو مقصود العبودية ولُبّها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

[من كتاب: مختصر سنن أبي داود]



تأمل خطاب القرآن تجد مَلِكًا له الملك كله، وله الحمد كله، أزمَّةُ الأمور كلُّها بيده، ومصدرُها منه، ومردُّها إليه، مستويًا على سرير ملكه، لا تخفى عليه خافية في أقطار مملكته، عالمًا بما في نفوس عبيده، مطلعًا على أسرارهم وعلانيتهم، منفردًا بتدبير المملكة، يسمع ويرى، ويعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويُكْرِم ويهين، ويخلق ويرزق ويميت، ويقدِّر ويقضي ويدبِّر. الأمور نازلة من عنده، دقيقها وجليلها، وصاعدة إليه، لا تتحرك في الكون ذرة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة الا بعلمه.

فتأمَّل كيف تجده يثني على نفسه ويمجِّد نفسَه، ويحمد نفسه، وينصح عباده، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه. فيُذكِّرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نِقَمِهِ، ويذكِّرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه، وكيف كان عاقبة هؤلاء وهؤلاء.

ويثنى على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذم

أعداءه بسيء أعمالهم وقبيح صفاتهم، ويضرب الأمثال وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويُصدِّق الصادق ويُكذِّب الكاذب، ويقول الحق ويهدي السبيل.

ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويحذِّر من دار البوار، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها، ويُذكِّر عباده فقرَهم إليه وشدةَ حاجتهم إليه من كل وجه، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويُذكِّر غناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه بنفسه، وأنه لا ينال أحد ذرةً من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته، ولا ذرةً من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته.

ويشهد من خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتاب، وأنه مع ذلك مُقيلٌ عثراتهم، وغافر زلاتهم، ومقيم أعذارهم، ومصلح فسادهم، والدافع عنهم، والمحامي عنهم، والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم، والمنجي لهم من كل كرب، والموفي لهم بوعده، وأنه وليهم الذي لا ولي لهم سواه، فهو مولاهم الحق ونصيرهم على عدوهم، فنعم المولى ونعم النصير.

فإذا شهدت القلوب من القرآن مَلِكًا عظيمًا رحيمًا جوادًا جميلاً هذا شأنه فكيف لا تحبه، وتنافس في القرب منه، وتنفق أنفاسها في

التودد إليه، ويكون أحب إليها من كل ما سواه، ورضاه آثر عندها من رضا كل ما سواه؟! وكيف لا تلهج بذكره ويصير حُبّه والشوق إليه والأنس به هو غذاؤها وقوتها ودواؤها، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها؟!

[من كتاب: الفوائد]

الغِنى بالحق تبارك وتعالى عن كل ما سواه هو أعلى درجات الغِنى، فأول هذه الدرجة أن تشهد ذكر الله تعالى إياك قبل ذكرك له، وأنه تعالى ذكرك فيمن ذكره من مخلوقاته ابتداءً قبل وجودك وطاعتك وذكرك، فقدَّر خلقك ورزقك وعملك وإحسانه إليك ونعمه عليك حيث لم تكن شيئًا البتة، وذكرك تعالى بالإسلام، فوفقك له، واختارك له دون من خذله، قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨] فجعلك أهلاً لما لم تكن أهلاً له قط، وإنما هو الذي أهَّلَكَ بسابق ذكره، فلولا ذكره لك بكل جميلٍ أَوْلاكَهُ لم يكن لك إليه سبيل. ومن الذي ذكرك باليقظة حتى استيقظت وغيرُك في رَقْدَةِ الغفلةِ مع النُّوَّام؟

ومن الذي ذكرك. سواه. بالتوبة حتى وفَّقك لها وأوقعها في قلبك، وبعث دواعيك وأحيا عزماتك الصادقة عليها حتى تُبت إليه وأقبلت عليه، فذقت حلاوة التوبة وبردها ولذاتها؟

ومن الذي ذكرك . سواه . بمحبته حتى هاجت من قلبك لواعِجُها، وتوجهت نحوه سبحانه ركائبها، وعَمَّر قلبك بمحبته بعد طول الخراب، وآنسك بقربه بعد طول الوحشة والاغتراب؟

ومن تقرب إليك أولاً حتى تقربت إليه، ثم أثابك على هذا

التقرب تقربًا آخر، فصار التقرب منك محفوفًا بتقربين منه تعالى: تقرب قبله وتقرب بعده، والحب منك محفوفًا بحبين منه: حب قبله وحب بعده، والذكر منك محفوفًا بذكرين: ذكر قبله وذكر بعده، فلولا سابق ذكره إياك لم يكن من ذلك كله شيء، ولا وصل إلى قلبك ذرة مما وصل إليه من معرفته وتوحيده ومحبته وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والتقرب إليه؟

فهذه كلها آثار ذكره لك، ثم إنه سبحانه ذكرك بنعمه المترادفة المتواصلة بعدد الأنفاس، فله عليك في كل طرفة عين ونفس نِعمٌ عديدة ذكرك بها قبل وجودك، وتعرّف بها إليك، وتحبب بها إليك، مع غناه التام عنك، وعن كل شيء، وإنما ذلك مجرد إحسانه وفضله وجوده، إذ هو الجواد المفضل المحسن لذاته، لا لمعاوضة ولا لطلب جزاء منك، ولا لحاجة دعته إلى ذلك، كيف وهو الغني الحميد! فإذا وصل إليك أدنى نعمة منه، فاعلم أنه ذكرك بها، فلْتَعْظُمْ عندك لذكره لك بها، فإنه ما حَقَرَكَ من ذَكَرَكَ بإحسانه، وابتدأك بمعروفه، وتحبب إليك بنعمته، هذا كله مع غناه عنك.

فإذا شهد العبد ذكر ربه تعالى له، ووصل شاهده إلى قلبه، شغله ذلك عما سواه، وحصل لقلبه به غنى عالٍ لا يشبهه شيء، وهذا كما يحصل للمملوك الذي لا يزال أستاذه وسيده يذكره ولا ينساه، فهو



يحصل له بشعوره بذكر أستاذه له غنى زائدًا على إنعام سيده عليه وعطاياه السَّنِيَّة له، فهذا هو غنى ذكر الله للعبد. وقد قال ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «... فإنْ ذَكَرَنِي - أي العبد - في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وإنْ ذَكَرَنِي في مَلاَءٍ ذَكَرْتُهُ في مَلاَءٍ خَيْرٍ منهمْ ...»[1]، فهذا ذكر ثان بعد ذكر العبد لربه غير الذكر الأول الذي ذكره به حتى جعله ذاكرًا، وشعور العبد بكلا الذكرين يوجب له غنى زائدًا على إنعام ربه عليه وعطاياه له.

والمقصود أن شعور العبد وشهوده لذكر الله له يُغني قلبه ويسد فاقته، وهذا بخلاف من نسوا الله فنسيهم، فإن الفقر من كل خير حاصل لهم، وما يظنون أنه حاصل لهم من الغنى فهو من أكبر أسباب فقرهم.

[من كتاب: طريق الهجرتين]

(١) أخرجه البخاري (ح٧٤٠٥).



أنه يورثه الإنابة، وهي الرجوع إلى الله عز وجل، فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره، أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه في كل أحواله، فيبقى الله عز وجل مفزعه وملجأه وملاذه ومعاذه وقِبلة قلبه، ومهربه عند النوازل والبلايا.

أنه يورثه القُرب منه، فعلى قدر ذكره لله عز وجل يكون قربه منه، وعلى قدر غفلته يكون بُعده منه.

أنه يورثه الهيبة لربه عز وجل وإجلاله، لشدة استيلائه على قلبه، وحضوره مع الله تعالى، بخلاف الغافل فإن حجاب الهيبة رقيق في قلبه.

[من كتاب: الوابل الصيب]



من علامات صحة القلب أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه، الذي لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوي، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف.

فذكره قوته وغذاؤه ومحبته، والشوق إليه حياته ونعيمه ولذته وسروره، والالتفات إلى غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواؤه، فإذا حصل له ربه سكن إليه واطمأن به وزال ذلك الاضطراب والقلق، وانسدت تلك الفاقة، فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله تعالى أبدًا، وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له، وعبادته وحده، فهو دائمًا يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده، فحينئذ يباشر روح الحياة، ويذوق طعمها، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذى له خلق الخلق، ولأجله خلقت الجنة والنار، وله أرسلت الرسل ونزلت الكتب، ولو لم يكن جزاء إلا نفس وجوده لكفى به جزاء، وكفى بفوته حسرة وعقوبة.

[من كتاب: إغاثة اللهفان]



القلب الصحيح: هو الذي همّه كله في الله، وحبه كله له، وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهى إليه من كل حديث، وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابه، والخلوة به آثر عنده من الخلطة إلا حيث تكون الخلطة أحب إليه وأرضى له. قرة عينه به، وطمأنينته وسكونه إليه، فهو كلما وجد من نفسه التفاتًا إلى غيره تلا عليها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ٢٨﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨].

فهو يردد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه، فينصبغ القلب بين يدي إلهه ومعبوده الحق بصبغة العبودية، فتصير العبودية صفة له وذوقًا لا تكلفًا، فيأتي بها توددًا وتحببًا وتقربًا، كما يأتي المحب المتيم في محبة محبوبه بخدمته وقضاء أشغاله. فكلما عرض له أمرٌ من ربه أو نهيٌ أحس من قلبه ناطقًا ينطق: «لبَّيْك وسعديك، إني سامعٌ مطيعٌ ممتثلٌ، ولك عليَّ المنَّة في ذلك، والحمد فيه عائد إليك».

وإذا أصابه قَدرٌ وجد من قلبه ناطقًا يقول: "أنا عبدك ومسكينك وفقيرك، وأنا عبدك الفقير العاجز الضعيف المسكين، وأنت ربي العزيز الرحيم، لا صبر لي إن لم تصبرني، ولا قوة لي إن لم تحملني

وتُقوِّني، لا ملجأ لي منك إلا إليك ولا مستعان لي إلا بك، ولا انصراف لي عن بابك، ولا مذهب لي عنك".

فينطرح بمجموعه بين يديه، ويعتمد بكُلِّيَّته عليه، فإن أصابه بما يكره قال: رحمةٌ أهدِيَتْ إليّ، ودواءٌ نافعٌ من طبيب مشفق. وإن صرف عنه ما يحب قال: شرًّا صُرِفَ عني.

[من كتاب: إغاثة اللهفان]

ما ظنك بملِك استولى عليه عدوُّه، فأنزله عن سرير ملكه، وأسره وحبسه، وحالَ بينه وبين خزائنه وذخائره وخدمه وصيّرها له، ومع هذا فلا يتحرك الملك لطلب ثأره، ولا يستغيث بمن يغيثه، ولا يستنجد بمن ينجده، وفوق هذا المَلِكِ مَلِكٌ قاهرٌ لا يُقهر، وغالب لا يُغلب، وعزيز لا يُذل، فأرسل إليه: إن استنصرتني نصرتُك، وإن استغثتَ بي اغثتُك، وإن التجأت إليَّ أخذتُ بثأرك، وإن هربت إليَّ، وآويت إليَّ سلطتك على عدوك، وجعلته تحت أمرك. فإن قال هذا الملك المأسور: قد شدَّ عدوي وثاقي، وأحكم رباطي، واستوثق مني القيود، ومنعني من النهوض إليك، والفرار إليك والمسير إلى بابك، فإن أرسلت جندًا من عندك يحلوا وثاقي ويفكوا قيودي ويخرجوني من حبسه، أمكنني أن أوافي بابك، وإلا لا يمكنني مفارقة محبسي، ولا كسر قيودي. فإن قال ذلك احتجاجًا على ذلك السلطان، ودفعًا لرسالته، ورضي بما هو فيه عند عدوه، خلاه السلطان الأعظم وحاله، وولاه ما تولى.

وإن قال ذلك افتقارًا إليه، وإظهارًا لعجزه وذُله، وأنه أضعف وأعجز أن يسير إليه بنفسه، ويخرج من حبس عدوه، ويتخلص منه

بحوله وقوته، وأن من تمام نعمته ذلك عليه كما أرسل إليه هذه الرسالة أن يمده من جنده ومماليكه بمن يعينه على الخلاص، ويكسر باب محبسه، ويفك قيوده، فإن فعل به ذلك فقد أتم إنعامه عليه، وإن تخلى عنه فلم يظلمه ولا منعه حقًا هو له. وأنَّ حمده وحكمته اقتضى منعه وتخليته في محبسه، ولاسيما إذا علم أن الحبسَ حبسُه، وأن هذا العدوَّ الذي حبسه مملوكٌ من مماليكه وعبدٌ من عبيده، ناصيته بيده، لا يتصرف إلا بإذنه ومشيئته، فهو غير ملتفت إليه، ولا خائف منه، ولا معتقد أن له شيئًا من الأمر، ولا بيده نفع ولا ضر، بل هو ناظر إلى مالكه، ومتولى أمره ومن ناصيته بيده، قد أفرده بالخوف والرجاء والتضرع إليه والالتجاء والرغبة والرهبة، فهناك تأتيه جيوش النصر والظفر.

[من كتاب: الفوائد]

في المسند و صحيح أبي حاتم من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَصَابَ عَبْدًا هَمٌّ وَلَا حُزْنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي. إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ، أَفَلا نَتَعَلَّمُهُنَّ؟ قَالَ: «بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ»(١).

فتضمّن هذا الحديث العظيم أمورًا من المعرفة والتوحيد والعبوديّة، منها أنّ الدّاعي به صدّر سؤاله بقوله: «إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ»، وهذا يتناول من فوقه من آبائه وأمّهاته إلى أبويه آدم وحوّاء، وفي ذلك تملّق له واستخذاء بين يديه، واعترافه بأنّه مملوكه وآباؤه مماليكه، وأنّ العبد ليس له غير باب سيّده وفضله وإحسانه، وأنّ سيّده إن أهمله وتخلّى عنه هلك، ولم يؤوه أحد ولم يعطف عليه، بل

(١) أخرجه أحمد (ح٣٧١٢)، وابن حبان (ح٩٧٢).



يضيع أعظم ضيعة.

فتحت هذا الاعتراف: أني لا غنى بي عنك طرفة عين، وليس لي من أعوذ به وألوذ به غير سيّدي الذي أنا عبده، وفي ضمن ذلك الاعتراف بأنه مربوب مدبّر مأمور منهي، إنّما يتصرّف بحكم العبوديّة لا بحكم الاختيار لنفسه، فليس هذا في شأن العبد بل شأن الملوك والأحرار، و أمّا العبيد فتصرّفهم على محض العبوديّة، فهؤلاء عبيد الطّاعة المضافون إليه سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحِجْر: ٤٢]، وقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفُرْقَان: ٦٣]، ومن عداهم عبيد القهر والربوبية، فإضافتهم إليه كإضافة سائر البيوت إلى ملكه، وإضافة أولئك كإضافة البيت الحرام إليه، وإضافة ناقته إليه، وداره التي هي الجنّة إليه، وإضافة عبودية رسوله إليه بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البَقَرَة: ٢٣]، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإِسْرَاء: ١]، وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجِن: ١٩].

وفي التّحقيق بمعنى قوله: «إني عبدك»، التزامُ عبوديته من الذلّ والخضوع والإنابة، وامتثال أمر سيّده، واجتناب نهيه، ودوام الافتقار إليه، واللّجوء إليه، والاستعانة به، والتوكّل عليه، وعياذ العبد به، ولياذه به. ألّا يتعلّق قلبه بغيره محبّةً وخوفًا ورجاءً.



وفيه أيضًا أنّي عبد من جميع الوجوه: صغيرًا وكبيرًا، حيًّا وميّتًا، مطيعًا وعاصيًا، معافىً ومبتلىً، بالرّوح والقلب واللّسان والجوارح.

وفيه أيضًا أنّ مالي ونفسي ملكٌ لك، فإنّ العبد وما يملك لسيّده.

وفيه أيضًا أنّك أنت الذي مننت عليّ بكلّ ما أنا فيه من نعمة، فذلك كلّه من إنعامك على عبدك.

وفيه أيضًا أنّي لا أتصرّف فيما خوّلتني من مالي ونفسي إلّا بأمرك، كما لا يتصرّف العبد إلّا بإذن سيّده، وأنّي لا أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فإن صحّ له شهود ذلك فقد قال: إنّي عبدك حقيقة.

[من كتاب: الفوائد]

روح هذه الكلمة وسرها: إفراد الرب - جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه، وتبارك اسمه، وتعالى جده، ولا إله غيره - بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء، وتوابع ذلك: من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة، فلا يحب سواه، وكل ما كان يُحَبُّ غيرُه فإنما يُحَبُّ تبعًا لمحبته، وكونه وسيلة إلى زيادة محبته، ولا يُخاف سواه، ولا يُرجى سواه، ولا يُتَوَكل إلا عليه، ولا يُرغب إلا إليه، ولا يُرهب إلا منه، ولا يُحلف إلا باسمه، ولا يُنظر إلا له، ولا يُتاب إلا إليه، ولا يُطاع إلا أمره، ولا يُتحسب إلا به، ولا يُستغاث في الشدائد إلا به، ولا يُلتجأ إلا إليه، ولا يُسجد إلا له، ولا يُذبح إلا له وباسمه.

ويجتمع ذلك في حرف واحد، وهو: أن لا يعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة، فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، ولهذا حرّم الله على النار من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة، ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ۝٣٣﴾ [المَعَارِج: ٣٣]، فيكون قائمًا بشهادته في ظاهره وباطنه، في قلبه وقالبه، فإن من الناس من تكون شهادته ميتة، ومنهم من تكون نائمة، إذا نبهت انتبهت، ومنهم من تكون مضطجعة،

ومنهم من تكون إلى القيام أقرب، وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن، فروح ميتة، وروح مريضة إلى الموت أقرب، وروح إلى الحياة أقرب، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن.

وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا رجل عِنْدَ حَضْرَةِ الْمَوْتِ إِلَّا وَجَدَ رُوحَهُ لَهَا رَوْحًا ...**»[1]، فحياة هذه الروح بحياة هذه الكلمة فيها، فكما أن حياة البدن بوجود الروح فيه، وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى، وعيشها أطيب عيش قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النَّازِعَات: ٤٠-٤١]، فالجنة مأواه يوم اللقاء.

وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه والفرح به والرضا بها وعنه مأوى روحه في هذه الدار، فمن كانت هذه الجنة مأواه هاهنا، كانت جنة الخلد مأواه يوم الميعاد، ومن حُرِم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرمانًا، والأبرار في النعيم وإن اشتد بهم العيش، وضاقت عليهم الدنيا، والفجار في جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النَّحْل: ٩٧]، وطيب الحياة جنة الدنيا، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه أحمد (ح٤٤٧).

﴿أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأَنْعَام: ١٢٥]، فأي نعيم أطيب من شرح الصدر؟! وأي عذاب أَمَرُّ من ضيق الصدر؟!

وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يُونُس: ٦٢-٦٤]، فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشًا، وأنعمهم بالاً، وأشرحهم صدرًا، وأسرّهم قلبًا، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة.

[من كتاب: الداء والدواء]

تأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سِجِلاًّ، كل سجل منها مدّ البصر، فتثقل البطاقة، وتطيش السجلات، فلا يعذب.

ومعلوم أن كلَّ موحدٍ له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه، ولكن السر الذي ثَقّلَ بطاقة ذلك الرجل وطاشت لأجله السجلات: لما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات انفردت بطاقته بالثقل والرزانة.

وإذا أردت زيادة الإيضاح لهذا المعنى، فانظر إلى ذِكر من قلبه ملآن بمحبتك، وذِكر من هو معرضٌ عنك غافلٌ ساهٍ مشغولٌ بغيرك، قد انجذبت دواعي قلبه إلى محبة غيرك، وإيثاره عليك، هل يكون ذكرهما واحدًا؟ أم هل يكون ولداك اللذان هما بهذه المثابة أو عبداك أو زوجتاك عندك سواء؟

وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية وحملته وهو في تلك الحال على أن جعل ينوء بصدره ويعالج سكرات الموت، فهذا أمر آخر وإيمان آخر ولا جرم أن أُلحق بالقرية الصالحة وجُعِل من أهلها.

وقريب من هذا: ما قام بقلب البَغِيِّ التي رأت ذلك الكلبَ وقد اشتد به العطش يأكل الثرى فقام بقلبها ذلك الوقت، مع عدم الآلة، وعدم المعين، وعدم من تُرائيه بعملها، ما حملها على أن غررت بنفسها في نزول البئر، وملء الماء في خُفِّها، ولم تَعبأ بتعرضها للتلف، وحملها خُفِّها بفيها وهو ملآن حتى أمكنها الرقي من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذى جرت عادة الناس بضربه، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاءً ولا شكورًا، فأحرقت أنوارُ هذا القَدْرِ من التوحيد ما تقدَّم منها من البِغاء فغُفِر لها.

فهكذا الأعمال والعُمّال عند الله، والغافل في غفلة من هذا الإكسير الكيماوي الذي إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهبًا، والله المستعان.

[من كتاب: مدارج السالكين]



محبة الله سبحانه والأنس به والشوق إلى لقائه والرضى به وعنه: أصل الدين وأصل أعماله وإراداته، كما أن معرفته والعلم بأسمائه وصفاته وأفعاله أجلُّ علوم الدين كلها، فمعرفته أجلُّ المعارف، وإرادة وجهه أجلُّ المقاصد، وعبادته أشرف الأعمال، والثناء عليه بأسمائه وصفاته ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال، وذلك أساس الحنيفية ملة إبراهيم.

وقد قال تعالى لرسوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٣﴾ [النَّحل: ١٢٣].

وكان النبي ﷺ يوصي أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين.

وذلك هو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وعليها قام دين الإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء والمرسلين، وليس لله دين سواه، ولا يقبل من أحد دينًا غيره: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عِمرَان: ٨٥].

فمحبته تعالى - بل كونه أحب إلى العبد من كل ما سواه على

الإطلاق - من أعظم واجبات الدين وأكبر أصوله وأجلِّ قواعده، ومن أحب معه مخلوقًا مثل ما يحبه فهو من الشرك الذي لا يُغفر لصاحبه ولا يُقبل معه عمل، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥].

وإذا كان العبد لا يكون من أهل الإيمان حتى يكون عبدُ الله ورسولُه أحبَّ إليه من نفسه وأهله وولده ووالده والناس أجمعين، ومحبته تبع لمحبة الله، فما الظن بمحبته سبحانه وهو سبحانه لم يخلق الجن والإنس إلا لعبادته التي تتضمن كمال محبته وكمال تعظيمه والذل له، ولأجل ذلك أرسل رسلَه وأنزل كتبَه وشرع شرائعه، وعلى ذلك وضع الثواب والعقاب، وأسِّسَت الجنةُ والنارُ، وانقسم الناس إلى شقي وسعيد، وكما أنه سبحانه ليس كمثله شيء، فليس كمحبته وإجلاله وخوفه محبة وإجلال ومخافة.

فالمخلوق كلما خِفْتَه استوحشتَ منه وهربتَ منه، والله سبحانه كلما خِفته أَنِستَ به وفررتَ إليه، والمخلوق يُخافُ ظلمُه وعدوانه، والرب سبحانه إنما يُخافُ عدلُه وقسطُه، وكذلك المحبة، فإن محبة المخلوق إذا لم تكن لله فهي عذاب للمحب ووبال عليه، وما يحصل له بها من التألم أعظم مما يحصل له من اللذة، وكلما كانت أبعد عن الله كان ألمها وعذابها أعظم.

هذا إلى ما في محبته من الإعراض عنك والتجني عليك وعدم الوفاء لك، إما لمزاحمة غيرك من المحبين له، وإما لكراهته ومعاداته لك، وإما لاشتغاله عنك بمصالحه وما هو أحب إليه منك، وإما لغير ذلك من الآفات.

وأما محبة الرب سبحانه فشأنها غير هذا الشأن، فإنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها ووليها ومولاها وربها ومدبرها ورازقها ومميتها ومحييها.

[من كتاب: إغاثة اللهفان]

محبته . سبحانه . نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن، فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة والعقول الزاكية أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسرَّ ولا أنعم من حبه والأنس به والشوق إلى لقائه، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة، كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال آخر: إنه ليمر بالقلب أوقات يهتز فيها طربًا بأنسه بالله وحبه له.

وقال آخر: مساكين أهل الغفلة خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها.

وقال آخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

ووجدان هذه الأمور وذوقها هو بحسب قوة المحبة وضعفها وبحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه، وكلما كانت المحبة أكمل

وإدراك المحبوب أتم والقرب منه أوفر، كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى.

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف، وفيه أرغب، وله أحب، وإليه أقرب، وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه، ولا يُعرف إلا بالذوق والوجد، ومتى ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدم عليه حبًا لغيره ولا أنسًا به، وكلما ازداد له حبًا ازداد له عبودية وذلاً وخضوعًا ورِقًّا له، وحريةً عن رقِّ غيره.

فالقلب لا يفلح ولا يصلح ولا يتنعم ولا يبتهج ولا يلتذ ولا يطمئن ولا يسكن إلا بعبادة ربه وحبه، والإنابة إليه، ولو حصل له جميع ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن إليها ولم يسكن إليها، بل لا تزيده إلا فاقةً وقلقًا حتى يظفر بما خُلق له وهُيء له؛ من كون الله وحده نهاية مراده وغاية مطالبه، فإن فيه فقرًا ذاتيًا إلى ربه وإلهه من حيث هو معبوده ومحبوبه وإلهه ومطلوبه، كما أن فيه فقرًا ذاتيًا إليه من حيث هو ربه وخالقه ورازقه ومدبره.

وكلما تمكنت محبة الله من القلب وقويت فيه، أخرجت منه تألهه لما سواه وعبوديته له، فأصبح حرًّا عزة وصيانة، على وجهه أنواره وضياؤه.

وما من مؤمن إلا وفي قلبه محبةٌ لله تعالى، وطمأنينةٌ بذكره، وتنعُّمٌ

بمعرفته، ولذةٌ وسرورٌ بذكره، وشوقٌ إلى لقائه، وأنسٌ بقربه، وإن لم يحس به لاشتغال قلبه بغيره وانصرافه إلى ما هو مشغول به، فوجود الشيء غير الإحساس والشعور به.

وقوة ذلك وضعفه وزيادته ونقصانه هو بحسب قوة الإيمان وضعفه وزيادته ونقصانه.

[من كتاب: إغاثة اللهفان]

متى لم يكن الله وحده غايةَ مراد العبد ونهاية مقصوده، وهو المحبوب المراد له بالذات والقصد الأول وكل ما سواه فإنما يحبه ويريده ويطلبه تبعًا لأجله. لم يكن قد حقق شهادة أن لا إله إلا الله، وكان فيه من النقص والعيب والشرك بقدره، وله من موجبات ذلك من الألم والحسرة والعذاب بحسب ما فاته من ذلك، ولو سعى في هذا المطلوب بكل طريق واستفتح من كل باب ولم يكن مستعينًا بالله متوكلاً عليه مفتقرًا إليه في حصوله، متيقنًا أنه إنما يحصل بتوفيقه ومشيئته وإعانته، لا طريق له سوى ذلك بوجه من الوجوه، لم يحصل له مطلوبه، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يوصل إليه سواه، ولا يدل عليه سواه، ولا يُعبد إلا بإعانته، ولا يُطاع إلا بمشيئته، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التَّكْوِير: ٢٨-٢٩].

وإذا عُرِفَ هذا، فالعبد في حال معصيته واشتغاله عنه بشهوته ولذته تكون تلك اللذة والحلاوة الإيمانية قد استترت عنه وتوارت، أو نقصت أو ذهبت، فإنها لو كانت موجودةً كاملةً لما قدّم عليها لذةً وشهوةً لا نسبة بينها وبينها بوجه ما، بل هي أدنى من حبة خردل بالنسبة إلى الدنيا وما فيها، ولهذا قال النبي ﷺ: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ

يَزْنِي وهو مُؤْمِنٌ، ولا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وهو مُؤْمِنٌ، ولا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وهو مُؤْمِنٌ ...»[1].

فإن ذوق حقيقة الإيمان ومباشرته لقلبه يمنعه من أن يُؤْثِرَ عليه ذلك القدرَ الخسيس، وينهاه عما يشعثه وينقصه.

ولهذا تجد العبدَ إذا كان مخلصًا لله منيبًا إليه مطمئنًا بذكره، مشتاقًا قلبه إلى لقائه، منصرفًا عن هذه المحرمات، لا يلتفت إليها، ولا يعوِّل عليها، ويرى استبداله بها عما هو فيه كاستبداله البعر الخسيس بالجوهر النفيس، وبيعه الذهب بأعقاب الجزر، وبيعه المسك بالرجيع.

ولا ريب أن في النفوس البشرية من هو بهذه المثابة، إنما يصبو إلى ما يناسبه ويميل إلى ما يشاكله، ينفر من المطالب العالية واللذات الكاملة، كما ينفر الجُعْل من رائحة الورد، وشاهدنا من يمسك بأنفه عند وجود رائحة المسك، ويتكرَّه بها لما يناله بها من المضرة.

فمن خُلق للعمل في الدباغة لا يجيء منه العمل في صناعة الطيب، ولا يليق ولا يتأتى منه.

والنفس لا تترك محبوبًا إلا لمحبوب هو أحب إليها منه، أو للخوف من مكروه هو أشق عليها من فوات ذلك المحبوب.

فالذنب يُعدم لعدم المقتضي له تارة، ولاشتغال القلب بما هو

(١) أخرجه البخاري (ح٢٤٧٥).

أحب إليه منه، ولوجود المانع تارة، ومن خوف فوات محبوب هو أحب إليه منه تارة.

فالأول: حال من حصل له من ذوق حلاوة الإيمان وحقائقه والتنعُّم به ما عوَّض قلبه عن ميله إلى الذنوب.

والثاني: حال من عنده داع وإرادة لها، وعنده إيمان وتصديق بوعد الله تعالى ووعيده، فهو يخاف إن واقعها أن يقع فيما هو أكره إليه وأشق عليه، فالأول: للنفوس المطمئنة إلى ربها، والثاني: لأهل الجهاد والصبر. وهاتان النفسان هما المخصوصتان بالسعادة والفلاح، قال الله تعالى في النفس الأولى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفَجر: ٢٧-٣٠].

وقال في الثانية: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النَّحل: ١١٠].

فالنفوس ثلاثة: نفس مطمئنة إلى ربها وهي أشرف النفوس وأزكاها، ونفس مجاهدة صابرة، ونفس مفتونة بالشهوات والهوى، وهي النفس الشقيَّة التي حظها الألم والعذاب، والبعد عن الله تعالى والحجاب[1].

[من كتاب: إغاثة اللهفان]

(١) المقصود بالحجاب أي حجاب عن رؤية الله تعالى في الآخرة، والأنس به سبحانه في الدنيا.

اعلم أن أنفع المحبة على الإطلاق، وأوجبها وأعلاها وأجلَّها، محبة من جُبلت القلوب على محبته، وفُطرت الخليقة على تأليهه، وبها قامت الأرض والسماوات، وعليها فُطرت المخلوقات، وهي سرّ شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب بالمحبة والإجلال، والتعظيم والذل له والخضوع والتعبد، والعبادة لا تصلح إلا له وحده، والعبادة هي: كمال الحب مع كمال الخضوع والذل، والشرك في هذه العبودية من أظلم الظلم الذي لا يغفره الله، والله تعالى يُحَبُّ لِذَاتِهِ من جميع الوجوه، وما سواه فإنما يُحَبُّ تبعًا لمحبته.

وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة، ودعوة جميع رسله، وفطرته التي فطر عباده عليها، وما ركّب فيهم من العقول، وما أسبغ عليهم من النعم، فإن القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها، فكيف بمن كان الإحسان منه؟ وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النَّحْل: ٥٣]، وما تعرّف به إلى عباده من أسمائه الحسنى وصفاته العلا، وما دلَّت عليه آثارُ مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته.

والمحبة لها داعيان: الجمال، والجلال، والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك، فإنه جميل يحب الجمال، بل الجمال كله له، والإجلال كله منه، فلا يستحق أن يحب لذاته من كل وجه سواه، قال الله تعالى:

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمۡرَان: ٣١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المَائـِدَة: ٥٤-٥٦].

فالولاية أصلها الحب، فلا موالاة إلا بحب، كما إن العداوة أصلها البغض، والله ولي الذين آمنوا وهم أولياؤه، فهم يوالونه بمحبتهم له، وهو يواليهم بمحبته لهم، فالله يوالي عبده المؤمن بحسب محبته له، ولهذا أنكر سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء، بخلاف من والى أولياءه، فإنه لم يتخذهم من دونه، بل موالاته لهم من تمام موالاته.

وقد أنكر على من سوّى بينه وبين غيره في المحبة، وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دونه أندادًا يحبهم كحب الله، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥].

وأخبر عمن سوَّى بينه وبين الأنداد في الحب، أنهم يقولون في

النار لمعبوديهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٧-٩٨].

وبهذا التوحيد في الحب أرسل الله سبحانه جميع رسله، وأنزل جميع كتبه، وأطبقت عليه دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، ولأجله خلقت السماوات والأرض والجنة والنار، فجعل الجنة لأهله، والنار للمشركين به فيه.

[من كتاب: الداء والدواء]

قد أقسم النبي ﷺ أنه: لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين[1]، فكيف بمحبة الربِّ جل جلاله؟!

وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لاَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ»[2]، أي لا تؤمن حتى تصل محبتك إلى هذه الغاية.

وإذا كان النبي ﷺ أولى بنا من أنفسنا في المحبة ولوازمها، أفليس الربّ جل جلاله وتقدست أسماؤه أولى بمحبته وعبادته من أنفسهم، وكل ما منه إلى عبده المؤمن يدعو إلى محبته، مما يحب العبد ويكره - فعطاؤه ومنعه، ومعافاته وابتلاؤه، وقبضه وبسطه، وعدله وفضله، وإماتته وإحياؤه، ولطفه وبره، ورحمته وإحسانه، وستره وعفوه، وحلمه وصبره على عبده، وإجابته لدعائه، وكشف كربه، وإغاثة لهفته، وتفريج كربته من غير حاجة منه إليه، بل مع غناه التام عنه من جميع

---

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رَسولُ اللهِ ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِن وَلَدِه وَوَالِدِهِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ» أخرجه البخاري (ح١٥)، ومسلم (ح٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (ح٦٦٣٢).



الوجوه، كل ذلك داع للقلوب إلى تأليهه ومحبته، بل تمكينه عبدَه من معصيته وإعانته عليها، وستره حتى يقضي وطره منها، وكلاءته وحراسته له، ويقضي وطره من معصيته، يعينه ويستعين عليها بنعمه. من أقوى الدواعي إلى محبته، فلو أن مخلوقًا فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك لم يملك قلبَه عن محبته.

فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يُحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس، مع إساءته؟ فخيره إليه نازل، وشره إليه صاعد، يتحبب إليه بنعمه وهو غني عنه، والعبد يتبغض إليه بالمعاصي وهو فقير إليه، فلا إحسانه وبره وإنعامه إليه يصده عن معصيته، ولا معصية العبد ولؤمه يقطع إحسان ربه عنه.

فألأم اللؤم تخلُّفُ القلوب عن محبة من هذا شأنه، وتعلقها بمحبة سواه.

وأيضًا فكل من تحبه من الخلق أو يحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك، والله سبحانه وتعالى يريدك لك، كما في الأثر الإلهي: (عبدي كل يريدك لنفسه، وأنا أريدك لك)، فكيف لا يستحي العبد أن يكون ربُه له بهذه المنزلة، وهو معرض عنه، مشغول بحب غيره، قد استغرق قلبه بمحبة سواه؟!

وأيضًا، فكل من تُعامِله من الخلق إن لم يربح عليك لم يعاملك،



ولابد له من نوع من أنواع الربح، والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه، فالدرهم بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بواحدة وهي أسرع شيء محوًا.

وأيضًا هو سبحانه خلقك لنفسه، وخلق كل شيء لك في الدنيا والآخرة، فمن أولى منه باستفراغ الوسع في محبته، وبذل الجهد في مرضاته؟

وأيضًا فمطالبك - بل مطالب الخلق كلهم جميعًا - لديه، وهو أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، أعطى عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله، يشكر القليل من العمل وينميه، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرَّحْمَٰن: ٢٩]، لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، بل يحب الملحين في الدعاء، ويحب أن يُسأَل، ويغضب إذا لم يُسأل، يستحي من عبده حيث لا يستحي العبد منه، ويستره حيث لا يستر نفسه، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه، دعاه بنعمه وإحسانه وأياديه إلى كرامته ورضوانه، فأبى، فأرسل رسله في طلبه، وبعث إليه معهم عهده، ثم نزل إليه سبحانه نفسه، وقال: (من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له؟...).

وكيف لا تُحب القلوب من لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب



بالسيئات إلا هو، ولا يجيب الدعوات، ويقيل العثرات، ويغفر الخطيئات، ويستر العورات، ويكشف الكربات، ويغيث اللهفات، وينيل الطلبات سواه؟!

فهو أحق من ذُكِر، وأحق من شُكِر، وأحق من عُبِد، وأحق من حُمِد، وأنصر من ابتُغِي، وأرأف من ملك، وأجود من سُئل، وأوسع من أعطى، وأرحم من استُرحم، وأكرم من قُصد، وأعز من التُجِئ إليه، وأكفى من تُوكِّل عليه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأشد فرحًا بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها.

وهو الملك لا شريك له، والفرد فلا نِدّ له، كل شيء هالك إلا وجهه، لن يُطاع إلا بإذنه، ولن يُعصى إلا بعلمه، يُطاع فيَشكُر، وبتوفيقه ونعمته أُطِيع، ويُعصى فيغفر ويعفو، وحقه أضيع، فهو أقرب شهيد، وأجلُّ حفيظ، وأوفى بالعهد، وأعدلُ قائم بالقسط، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي وكتب الآثار، ونسخ الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب لديه مكشوف، وكل أحد إليه ملهوف، وعَنَتِ الوجوه لنور وجهه، وعجزت القلوب عن إدراك كنهه، ودلَّت الفِطرُ والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه، أشرقت لنور وجهه الظلمات، واستنارت له الأرض والسماوات، وصلحت عليه



جميع المخلوقات، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عملُ الليل قبل عمل النهار، وعملُ النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، ولو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصرُه من خلقه.

ما اعتاض باذلُ حبه لسواهُ من

عوض ولو ملك الوجود بأسره

[من كتاب: الداء والدواء]

فإن القلوب جُبلت على حُبِّ من أحسن إليها وبُغْضِ من أساء إليها، ولا أحد أعظم إحسانًا من الله سبحانه، فإن إحسانه على عبده في كل نَفَسٍ ولحظةٍ، وهو يتقلب في إحسانه في جميع أحواله، ولا سبيل له إلى ضبط أجناس هذا الإحسان فضلاً عن أنواعه أو عن أفراده، ويكفي أن من بعض أنواعه نعمة النَفَس، التي لا تكاد تخطر ببال العبد، وله عليه في كل يوم وليلة فيه أربعة وعشرون ألف نعمة، فإنه يتنفس في اليوم والليلة أربعة وعشرين ألف نَفَس، وكل نَفَس نعمة منه سبحانه، فإذا كان أدنى نعمة عليه في كل يوم أربعة وعشرين ألف نعمة، فما الظن بما فوق ذلك وأعظم منه؟! ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبۡرَاهِيم: ٣٤]، هذا إلى ما يصرف عنه من المضرَّات وأنواع الأذى التي تقصده، ولعلها توازن النعم في الكثرة والعبد لا شعور له بأكثرها أصلاً، والله سبحانه يكلؤه منها بالليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الأَنبِيَاء: ٤٢]، وسواء كان المعنى من يكلؤكم ويحفظكم منه إذا أراد بكم سوءًا، ويكون ﴿يَكۡلَؤُكُم﴾ [الأَنبِيَاء: ٤٢] مُضمَّنًا معنى: (يجيركم وينجيكم من بأسه)، أو كانت (مِنْ) البدلية أي: (من يكلؤكم بدل الرحمن)، أي: هو

الذي يكلؤكم وحده، لا كالئ لكم غيره.

ونظيرُ (مِنْ) هذه قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠﴾ [الزُّخْرُف: ٦٠] على أحد القولين، أي: عوضكم وبدلكم، فهو سبحانه منعم عليهم بكلاءتهم وحفظهم وحراستهم مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده، لا حافظ لهم غيره، هذا مع غناه التام عنهم وفقرهم التام إليه من كل وجه.

وفي بعض الآثار يقول تعالى: «أَنَا الجَوَادُ، ومَنْ أَعْظَمُ مِنِّي جُوداً وَكَرَماً؟ أَبِيتُ أَكْلأُ عِبَادِي في مَضَاجِعِهِم وَهُمْ يُبَارِزُونَنِي بِالْعَظَائِمَ»، وفي الترمذي أن النبي ﷺ لما رأى السحاب قال: «هَذِهِ رَوَايَا الأَرْضِ يَسُوقُهَا اللهُ إلى قَوْمٍ لا يَذْكُرُونَهُ وَلا يَعْبُدُونَهُ»(١)، وفي الصحيحين عنه أنه قال: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذَى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ، يَدَّعُونَ لَهُ الوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»(٢)، وفي بعض الآثار يقول الله: «ابنَ آدم! خيري إليك نازل وشرُّك إليَّ صاعد، كم أتحبب إليك بالنِّعَم وأنا غني عنك، وكم تتبغض إليَّ بالمعاصي وأنت فقير إليَّ، ولا يزال الملَكُ الكريم يعرج إليَّ منك بعمل قبيح».

ولو لم يكن من تحببه إلى عباده وإحسانه إليهم وبره بهم إلا أنه

---

(١) أخرجه الترمذي (ح٣٢٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (ح٥٧٤٨)، ومسلم (ح٢٨٠٤).



خلق لهم ما في السموات والأرض، وما في الدنيا والآخرة، ثم أَهَّلَهم وكرَّمهم وأَرسل إليهم رسلَه، وأَنزل عليهم كتبَه، وشَرَعَ لهم شرائعه، وأَذِن لهم في مناجاته كلَّ وقت أرادوا، وكتب لهم بكل حسنة يعملونها عشرةَ أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وكتب لهم بالسيئة واحدةً، فإن تابوا منها محاها وأثبت مكانها حسنة، وإذا بلغت ذنوبُ أحدهم عنانَ السماء ثم استغفره غفر له، ولو لقيه بقُراب الأرض خطايا ثم لقيه بالتوحيد لا يشرك به شيئًا لأتاه بقُرابها مغفرة، وشرع لهم التوبة الهادمة للذنوب فوفقهم لفعلها ثم قبلها منهم، وشرع لهم الحج الذي يهدم ما قبله فوفقهم لفعله وكفَّر عنهم سيئاتهم به، وكذلك ما شرعه لهم من الطاعات والقُرُبات وهو الذي أمرهم بها وخلقها لهم وأعطاهم إياها ورتب عليها جزاءها، فمنه السبب ومنه الجزاء ومنه التوفيق ومنه العطاء أولاً وآخرًا، وهم محل إحسانه كله منه أولاً وآخرًا، أعطى عبده المالَ وقال تقرَّب بهذا إليَّ أقبله منك، فالعبدُ له، والمالُ له، والثوابُ منه، فهو المعطي أولاً وآخرًا، فكيف لا يُحَبُّ من هذا شأنه؟! وكيف لا يستحي العبدُ أن يصرف شيئًا من محبته إلى غيره؟! ومن أولى بالحمد والثناء والمحبة منه؟! ومن أولى بالكرم والجود والإحسان منه؟!

فسبحانه وبحمده، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.



ويفرح سبحانه وتعالى بتوبة أحدهم إذا تاب إليه أعظم فرح وأكمله، ويُكفِّر عنه ذنوبَه، ويُوجِب له محبته بالتوبة، وهو الذي ألهمه إياها، ووفقه لها وأعانه عليها، وملأ سبحانه وتعالى سماواته من ملائكته، واستعملهم في الاستغفار لأهل الأرض، واستعمل حملةَ العرش منهم في الدعاءِ لعباده المؤمنين والاستغفارِ لذنوبهم ووقايتِهم عذابَ الجحيم، والشفاعةِ إليه بإذنه أن يدخلهم جناته.

فانظر إلى هذه العناية وهذا الإحسان وهذا التحنُّن والعطف والتحبب إلى العباد واللطف التام بهم، ومع هذا كله. بعد أن أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وتعرَّف إليهم بأسمائه وصفاته وآلائه. ينزل كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا يسأل عنهم، ويستعرض حوائجهم بنفسه، ويدعوهم إلى سؤاله، فيدعو مسيئَهم إلى التوبة، ومريضَهم إلى أن يسأله أن يشفيه، وفقيرَهم إلى أن يسأله غناه، وذا حاجتهم يسأله قضاءها كل ليلة، ويدعوهم إلى التوبة وقد حاربوه وعذبوا أولياءه وأحرقوهم بالنار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾ [البُرُوج: ١٠]. قال بعض السلف: انظروا إلى كرمه، كيف عذَّبوا أولياءَه وحرَّقوهم بالنار ثم هو يدعوهم إلى التوبة؟!

[من كتاب: طريق الهجرتين]

الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالاً إن لم يحصل له فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فَقْدِ كمالِه، الذي جَعَل له مثالاً: كمالَ العين بالأبصار، وكمالَ الأذن بالسمع، وكمالَ اللسان بالنطق، فإذا عَدِمت هذه الأعضاء القوى التي بها كمالها، حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك، وجعل كمالَ القلب ونعيمَه وسرورَه ولذتَه وابتهاجَه في معرفته سبحانه وإرادته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه والشوق إليه والأنس به، فإذا عَدم القلبُ ذلك كان أشدّ عذابًا واضطرابًا من العين التي فقدت النور الباصر، ومن اللسان الذي فقد قوة الكلام والذوق.

ولا سبيل له إلى الطمأنينة بوجه من الوجوه ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال، إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبه، وأن يكون هو وحده مستعانه على تحصيل ذلك. فحقيقة الأمر أنه لا طمأنينة له بدون التحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

[من كتاب: الروح]

أعظم نعيم الآخرة ولذاتها: هو النظر إلى وجه الرب جل جلاله، وسماع كلامه منه، والقرب منه، كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية: «فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيهِ»[(١)]، وفي حديث آخر: «إِنَّهُ إِذَا تَجَلَّى لهم وَرَأَوهُ؛ نَسُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ».

وفي النسائي ومسند الإمام أحمد عن عمار بن ياسر ﵁ عن النبي ﷺ في دعائه: «وأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ والشَّوْقَ إِلَى لِقائِكَ»[(٢)]، وفي كتاب السُّنة لعبد الله ابن الإمام أحمد مرفوعًا: «كَأَنَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ يَسْمَعُوا القُرْآنَ، إِذَا سَمِعُوهُ مِنَ الرَّحْمَنِ فَكَأَنَّهُم لم يَسْمَعُوا قَبْلَ ذَلِكَ».

وإذا عُرف هذا، فأعظم الأسباب التي تُحَصِّل هذه اللذةَ هو أعظم لذَّات الدنيا على الإطلاق، وهي لذة معرفته سبحانه، ولذة محبته، فإن ذلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالي، ونسبة لذَّاتها الفانية إليه كتفلة في بحر، فإن الروح والقلب والبدن إنما خُلِقَ لذلك، فأطيب ما

(١) أخرجه أحمد (ح١٨٩٦١)، وابن ماجه (ح١٨٧).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (ح٢٩٣٤٦)، وأحمد (ح١٨٣٥١)، والنسائي (ح١٣٠٥).



في الدنيا معرفتُه ومحبتُه، وألذُّ ما في الجنة رؤيته ومشاهدته، فمحبته ومعرفته قرة العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها، بل لذَّاتُ الدنيا القاطعةُ عن ذلك تتقلب آلامًا وعذابًا، ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك، فليست الحياة الطيبة إلا بالله.

وكان بعض المحبين تمر به أوقات فيقول: (إن كان أهل الجنة في نعيم مثل هذا إنهم لفي عيش طيب) . وقد تقدم ذلك .، وكان غيره يقول: (لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف).

وإذا كان صاحب المحبة الباطلة التي هي عذاب على قلب المحب، يقول في حاله:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى

فلا خير فيمن لا يحب ويعشق

ويقول غيره:

أفٍّ للدنيا إذا ما لم يكن

صاحب الدنيا محبًا أو حبيبًا

فكيف بالمحبة التي هي حياة القلوب، وغذاء الأرواح، وليس للقلب لذة، ولا نعيم، ولا فلاح، ولا حياة إلا بها، وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظمَ من ألم العين إذا فقدت نورها، والأذن إذا فقدت



سمعها، والأنف إذا فقد شمَّه، واللسان إذا فقد نطقه، بل فسادُ القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظمُ من فساد البدن إذا خلا منه الروح، وهذا الأمر لا يُصدِّق به إلا من فيه حياة، وما لجرح ميتٍ إيلام.

والمقصود: أن أعظم لذَّات الدنيا هو السبب الموصل إلى أعظم لذِّة في الآخرة، ولذَّات الدنيا ثلاثة أنواع:

فأعظمها وأكملها: ما أوصل لذة الآخرة، ويثاب الإنسان على هذه اللذة أتم ثواب، ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به وجه الله، من أكله، وشربه، ولباسه، ونكاحه، وشفاء غيظه بقهر عدو الله وعدوه، فكيف بلذَّة إيمانه، ومعرفته بالله، ومحبته له، وشوقه إلى لقائه، وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم؟!

النوع الثاني: لذَّةٌ تمنع لذَّةَ الآخرة، وتعقب آلامًا أعظم منها، كلذَّةِ الذين اتخذوا من دون الله أوثانًا مودة بينهم في الحياة الدنيا يحبونهم كحب الله، ويستمتعون بعضهم ببعض، كما يقولون في الآخرة إذا لقوا ربهم: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨-١٢٩].

ولذَّةِ أصحاب الفواحش والظلم والبغي في الأرض والعلو بغير

الحق.

وهذه اللذَّاتُ في الحقيقة إنما هي استدراج من الله لهم ليذيقهم بها أعظم الآلام، ويحرمهم بها أكمل اللذَّات، بمنزلة من قدم لغيره طعامًا لذيذًا مسمومًا؛ يستدرجه به إلى هلاكه، قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأَعْرَاف: ١٨٢-١٨٣].

قال بعض السلف في تفسيرها: كلما أحدثوا ذنبًا أحدثنا لهم نعمة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأَنْعَام: ٤٤-٤٥].

وقال تعالى لأصحاب هذه اللذة: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المُؤْمِنُون: ٥٥-٥٦].

وقال في حقهم: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التَّوْبَة: ٥٥].

وهذه اللذة تنقلب آخرًا آلامًا من أعظم الآلام، كما قيل:

مآرب كانت في الحياة لأهلها

عذابًا فصارت في المعاد عذابا

النوع الثالث: لذة لا تعقب لذةً في دار القرار ولا ألمًا، ولا تمنع أصلَ لذة دار القرار . وإن منعت كمالها .، وهذه اللذة المباحة التي لا يستعان بها على لذة الآخرة، فهذه زمانها يسير، ليس لتمتع النفس بها



قدر، ولابد أن تشتغل عما هو خير وأنفع منها.

وهذا القسم هو الذي عناه النبي ﷺ بقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ يَلْهُو بِهِ ابْنُ آدَمَ فَهُوَ بَاطِلٌ، إِلاَّ ثَلاَثًا: رَمْيَهُ عَنْ قَوْسِهِ، وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ، وَمُلاَعَبَتَهُ أَهْلَهُ، فَإِنَّهُنَّ مِنَ الْحَقِّ﴾[١].

فما أعان على اللذَّة المطلوبة لِذَاتِها فهو حق، وما لم يعن عليها فهو باطل.

[من كتاب: الداء والدواء]

(١) أخرجه أحمد (ح١٧٤٣٣)، والدارِمي (ح٢٤٠٥)، وابن ماجة (ح٢٨١١).

لَذَّة كل أحد على حسب قَدْرِه وهمّته وَشرف نَفسه، فأشرفُ النَّاس نَفْسًا وأعلاهم همّة وأرفعهم قدرًا مَن لذَّته في معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه، والتودد إليه بما يحبه ويرضاه، فلذته فِي إقباله عليه وعكوف همته عليه، وَدون ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله، حتى تنتهي إلى من لذَّته في أخسِّ الأشياء من القاذورات والفواحش في كل شيءٍ من الكلام والفِعال والأشغال، فلو عُرضت عليه ما يلْتذُّ به الأول لم تسمح نفسه بقبوله ولا الالتفات إليه، وربما تألمت من ذلك، كما أن الأول إذا عُرض عليه ما يلتذ به، هذا لم تسمح نفسه به ولم تلتفت إليه ونفرت نفسه منه.

وأكمل النَّاس لَذَّة من جُمع لَهُ بين لَذَّة الْقلب وَالروح وَلَذَّة الْبدن، فهو يتناول لذَّاته المباحة على وَجه لَا ينقص حَظه من الدَّار الْآخِرَة، وَلَا يقطع عَلَيْهِ لَذَّة الْمعرفَة والمحبة والأنس بربه، فَهَذَا مِمَّن قَالَ تعالى فيه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأَعْرَاف: ٣٢].

وأبخسهم حظًا من اللَّذَّة مَن تناولها على وَجه يحول بَينه وَبَين لذَّات الْآخِرَة، فَيكون مِمَّن يُقَال لَهُم يَوْم اسْتِيفَاء اللَّذَّات: ﴿أَذْهَبْتُمْ

طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾ [الأَحْقَاف: ٢٠]. فهؤلاء تمتعوا بالطيبات وأولئك تمتعوا بالطيبات وافترقوا فِي وَجه التمتع، فأولئك تمتعوا بهَا على الْوَجْه الَّذِي أُذن لهم فيه فَجمع لَهُم بَين لَذَّة الدنيا والآخرة، وهؤلاء تمتعوا بهَا على الْوَجْه الَّذِي دعاهم إليه الْهوى والشهوة وَسَوَاء أذن لهم فيه أم لا، فانقطعت عنهم لذة الدنيا وفاتتهم لذة الآخرة، فلا لذة الدنيا دامت لهم، ولا لذة حصلت لهم.

فَمن أحب اللَّذَّة ودوامها والعيش الطيّب فليجعل لَذَّة الدنيا موصلةً لَهُ إلى لَذَّة الآخرة، بِأَن يَسْتَعِين بهَا على فرَاغ قلبه لله وإرادته وعبادته، فيتناولها بِحكم الاستعانة والقوة على طلبه، لَا بِحكم مجرد الشهوة والهوى، وإن كان ممن زُويت عَنهُ لذَّاتُ الدنيا وطيباتُها، فليجعل مَا نقص منها زيادة في الآخرة، ويُجِم نَفسه هَهُنَا بِالتّرْكِ ليستوفيها كاملةً هناك، فطيبات الدُّنْيَا ولذَّاتها نِعْم العون لمن صَحَّ طلبه لله والدار الآخرة، وَكَانَت همّه لما هناك، وَبئسَ الْقَاطِع لمن كَانَت هِيَ مَقْصُوده وهمته وحولها يدندن، وفواتها فِي الدنيا نِعْم العون لطَالب الله وَالدَّار الْآخِرَة، وَبئسَ الْقَاطِع النازع من الله وَالدَّار الْآخِرَة، فَمن أَخذ مَنَافِع الدُّنْيَا على وَجه لَا ينقص حَظه من الْآخِرَة ظفر بهما جَمِيعًا، وَإِلَّا خسرهما جَمِيعًا.

[من كتاب: الفوائد]



لا غنى للعبد عن مشهد الذل، والانكسار والخضوع والافتقار للرب جل جلاله!

فيشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورةً تامةً وافتقارًا تامًّا إلى ربه ووليه، ومن بيده صلاحه وفلاحه وهُداه وسعادته.

وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارةَ حقيقتُها؛ وإنما تدرك بالحصول؛ فيحصل لقلبه كسرة خاصة؛ لا يشبهها شيء؛ بحيث يرى نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل، الذي لا شيء فيه، ولا به، ولا منه، ولا فيه منفعة، ولا يرغب في مثله، وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من صانعه، وقيّمه، فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما منَّ ربه إليه من الخير، ويرى أنه لا يستحق قليلاً منه ولا كثيرًا.

فأي خير ناله من الله استكثره على نفسه، وعلم أن قدْره دونه، وأن رحمة ربه هي التي اقتضت ذكره به وسياقته إليه، واستقلَّ ما من نفسه من الطاعات لربه، ورآها. ولو ساوت طاعات الثقلين. من أقل ما ينبغي لربه عليه، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه، فإن الكسرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله، فما أقرب الجبر من هذا القلب



المكسور! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه!

وذرةٌ من هذا ونَفَسٌ منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المُدِلِّين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم.

وأحب القلوب إلى الله سبحانه قلبٌ قد تمكنت منه هذه الكسرة، وملكته هذه الذلة، فهو ناكس الرأس بين يدي ربه، لا يرفع رأسه إليه حياءً وخجلاً من الله.

قيل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟! قال: نعم، يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء. فهذا سجود القلب.

فقلبٌ لا تباشره هذه الكسرة؛ فهو غير ساجد السجود المراد منه. إذا سجد القلب لله هذه السجدة العظمى سجدت معه جميع الجوارح، وعَنَا الوجهُ حينئذ للحي القيوم، وخشع الصوت والجوارح كلها، وذَلَّ العبدُ وخضع واستكان، ووضع خده على عتبة العبودية؛ ناظرًا بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم، فلا يُرى إلا متملقًا لربه؛ خاضعًا له، ذليلاً، مستعطفًا له، يسأله عطفه ورحمته.

فهو يترضَّى ربَّه كما يترضَّى المحب الكامل المحبة محبوبه المالك له؛ الذي لا غنى له عنه ولابدّ له منه، فليس له همٌّ غير استرضائه واستعطافه؛ لأنه لا حياة له ولا فلاح؛ إلا في قربه ورضاه عنه ومحبته

له؛ يقول: كيف أُغضِب من حياتي في رضاه؟! وكيف أَعدِل عمَّن سعادتي وفلاحي وفوزي في قربه وحبه وذكره؟!

وصاحب هذا المشهد يشهد نفسه كرجل كان في كنف أبيه، يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللباس، ويربيه أحسن التربية، ويرقيه على درجات الكمال أتم ترقية، وهو القيّم بمصالحه كلها، فبعثه أبوه في حاجة له؛ فخرج عليه في طريقه عدوّ، فأَسَره وكتَّفه وشدّه وَثَاقًا، ثم ذهب به إلى بلاد الأعداء، فسامه سوء العذاب، وعامله بضد ما كان أبوه يعامله به، فهو يتذكر تربية والده وإحسانه إليه الفينة بعد الفينة، فتهيج من قلبه لواعج الحسرات؛ كلما رأى حاله، ويتذكر ما كان عليه وكل ما كان فيه. فبينا هو في أسر عدوه يسومه سوء العذاب، ويريد نحره في آخر الأمر، إذ حانت منه التفاتة إلى نحو ديار أبيه، فرأى أباه منه قريبًا، فسعى إليه، وألقى نفسه عليه، وانطرح بين يديه يستغيث:

يا أبتاه! يا أبتاه! يا أبتاه! انظر إلى ولدك وما هو فيه!

ودموعه تستبق على خديه؛ قد اعتنقه، والتزمه.

وعدوه في طلبه حتى وقف على رأسه وهو ملتزم لوالده ممسك به، فهل تقول: إن والده يسلمه مع هذه الحال إلى عدوه؟ ويخلي بينه وبينه؟

فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده؟! ومن الوالدة بولدها؟! إذا فرّ عبد إليه وهرب من عدوه إليه، وألقى بنفسه طريحًا



ببابه، يمرغ خدّه في ثرى أعتابه باكيًا بين يديه يقول: يا ربّ! يا ربّ! ارحم من لا راحم له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مؤوي له سواك، ولا مغيث له سواك، مسكينك، وفقيرك، وسائلك، ومؤملك، ومرجيك، لا ملجأ له ولا منجا له منك إلا إليك، أنت معاذه، وبك ملاذه.

يا من ألوذ به فيما أؤمله

ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناسُ عظمًا أنت كاسره

ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

[من كتاب: مدارج السالكين]

الغاية التي شمَّر إليها السالكون، وأَمّها القاصدون، ولحظ إليها العاملون: هو مشهد العبودية والمحبة، والشوق إلى لقائه، والابتهاج به والفرح والسرور به، فتقرُّ به عينه، ويسكن إليه قلبه، وتطمئن إليه جوارحه، ويستولي ذكره على لسان محبه وقلبه، فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية، وإرادات التقرب إليه وإلى مرضاته مكان إرادة معاصيه ومساخطه، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات مكان حركاتها بالمعاصي.

قد امتلأ قلبه من محبته ولهج لسانه بذكره وانقادت الجوارح لطاعته، فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لا يُعبَّرُ عنه، ويُحكى عن بعض العارفين أنه قال: دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها، فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام فلم أتمكن من الدخول، حتى جئت باب الذل والافتقار فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ يقول: (من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية). وقال بعض العارفين: (لا طريق أقرب إلى الله

من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوى، ولا ينفع مع الإعجاب والكبر عمل واجتهاد، ولا يضر مع الذل والافتقار بطالةٌ).. يعني بعد فعل الفرائض..

والقصد: أن هذه الذلة والكسرة الخاصة تُدخله على الله وترميه على طريق المحبة، فيُفتح له منها بابٌ لا يُفتح له من غير هذه الطريق، وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تَفتح للعبد أبوابًا من المحبة، لكن الذي يُفتح منها من طريق الذُّل والانكسار والافتقار وازدراء النفس ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم بحيث يشاهدها ضيعة وعجزًا وتفريطًا وذنبًا وخطيئة. نوع آخر، وفتح آخر.

والسالك بهذه الطريق غريب في الناس، هُمْ في واد وهو في واد، وهي تسمى طريق الطير، يسبق النائم فيها على فراشه السعاة، فيصبح وقد قطع الطريق وسبق الركب، بينا هو يحدثك وإذا به قد سبق الطَّرْفَ وفات السُّعاةَ، والله المستعان خير الغافرين.

وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله له وفرحه بتوبة عبده، فإنه سبحانه يحب التوابين ويفرح بتوبتهم أعظم فرح وأكمله، فكلما طالع العبد مِنن ربه سبحانه عليه قبل الذنب وفي حال مواقعته وبعده، وبِره به وحلمه عنه وإحسانه إليه: هاجت من قلبه لواعج محبته والشوق إلى لقائه، فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وأي إحسان

أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصي وهو يمده بنعمه ويعامله بألطافه ويسبل عليه ستره ويحفظه من خطفات أعدائه المترقبين له أدنى عثرة ينالون منه بها بُغيتهم، ويردهم عنه ويحول بينهم وبينه.

وهو في ذلك كله بعينه يراه ويطّلع عليه، فالسماء تستأذن ربها أن تحصبه، والأرض تستأذنه أن تخسف به، والبحر يستأذنه أن يُغرقه، كما في مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ إِلَّا وَالْبَحْرُ يَسْتَأْذِنُ رَبَّهُ أَنْ يُغْرِقَ ابْنَ آدَمَ، وَالْمَلَائِكَةُ تَسْتَأْذِنُهُ أَنْ تُعَاجِلَهُ وَتُهْلِكَهُ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يَقُولُ: دَعُوا عَبْدِي، فَأَنَا أَعْلَمُ بِهِ، إِذْ أَنْشَأْتُهُ مِنَ الْأَرْضِ، إِنْ كَانَ عَبْدَكُمْ فَشَأْنُكُمْ بِهِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدِي فَمِنِّي وَإِلَيَّ، عَبْدِي وَعِزَّتِي وَجَلَالِي إِنْ أَتَانِي لَيْلاً قَبِلْتُهُ، وَإِنْ أَتَانِي نَهَارًا قَبِلْتُهُ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ مَشَى إِلَيَّ هَرْوَلْتُ إِلَيْهِ، وَإِنِ اسْتَغْفَرَنِي غَفَرْتُ لَهُ، وَإِنِ اسْتَقَالَنِي أَقَلْتُهُ، وَإِنْ تَابَ إِلَيَّ تُبْتُ عَلَيْهِ، مَنْ أَعْظَمَ مِنِّي جُودًا وَكَرَمًا، وَأَنَا الْجَوَادُ الْكَرِيمُ؟ عَبِيدِي يَبِيتُونَ يُبَارِزُونَنِي بِالْعَظَائِمِ، وَأَنَا أَكْلَؤُهُمْ فِي مَضَاجِعِهِمْ، وَأَحْرُسُهُمْ عَلَى فُرُشِهِمْ، مَنْ أَقْبَلَ إِلَيَّ تَلَقَّيْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَمَنْ تَرَكَ لِأَجْلِي أَعْطَيْتُهُ فَوْقَ الْمَزِيدِ، وَمَنْ تَصَرَّفَ بِحَوْلِي وَقُوَّتِي أَلَنْتُ لَهُ الْحَدِيدَ، وَمَنْ أَرَادَ مُرَادِي أَرَدْتُ مَا يُرِيدُ، أَهْلُ ذِكْرِي أَهْلُ مُجَالَسَتِي، وَأَهْلُ شُكْرِي أَهْلُ زِيَادَتِي، وَأَهْلُ طَاعَتِي أَهْلُ كَرَامَتِي، وَأَهْلُ مَعْصِيَتِي لَا أُقْنِطُهُمْ مِنْ رَحْمَتِي، إِنْ



تَابُوا إِلَيَّ فَأَنَا حَبِيبُهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَتُوبُوا فَأَنَا طَبِيبُهُمْ، أَبْتَلِيهِمْ بِالْمَصَائِبِ، لِأُطَهِّرَهَمْ مِنَ الْمَعَايِبِ﴾.

[من كتاب: مدارج السالكين]

الأدب مع الله ثلاثة أنواع:

أحدها: صيانة معاملته أن يشوبها بنقيصة.

الثّاني: صيانة قلبه أن يلتفت إلى غيره.

الثّالث: صيانة إرادته أن تتعلّق بما يُمْقِتُك عليه.

وتأمَّل أحوالَ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله، وخطابهم وسؤالهم كيف تجدها كلها مشحونةً بالأدب قائمةً به.

قال المسيح عليه السلام: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المَائـِدَة: ١١٦]، ولم يقل: لم أقله. وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب. ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره، فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ [المَائـِدَة: ١١٦] ثم برّأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختص به سبحانه، فقال: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المَائـِدَة: ١١٦] ثم أثنى على ربه، ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها، فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ١١٦﴾، [المَائـِدَة: ١١٦] ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به - وهو محض التوحيد - فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المَائـِدَة: ١١٧]، ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله عز وجل وحده هو المنفرد

بعد الوفاة بالاطلاع عليهم، فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [المَائـِدَة: ١١٧]، ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم، فقال: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧﴾ [المَائـِدَة: ١١٧]، ثم قال: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ [المَائـِدَة: ١١٨]، وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام، أي شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدًا لغيرك، فإذا عذَّبتهم ـ مع كونهم عبيدك ـ فلولا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد، وأعتاهم على سيدهم، وأعصاهم له ـ لم تعذبهم؛ لأن قربة العبودية تستدعي إحسانَ السيد إلى عبده ورحمته، فلماذا يعذب أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحسانًا عبيده، لولا فرْط عتوهم، وإباؤهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

وقد تقدم قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦﴾ [المَائـِدَة: ١١٦] أي هم عبادك، وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم، فإذا عذبتهم: عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه، فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه، فليس في هذا استعطاف لهم، كما يظنه الجُهَّال، ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة، كما تظنه القدرية. وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله، وكمال علمه بحالهم، واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال: ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المَائـِدَة: ١١٨]، ولم يقل: الغفور الرحيم، وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى، فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة، بل مقام براءة منهم، فلو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم، لأشعر باستعطافه ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم، فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم، فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم، ليست عن عجز عن الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم، وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه، ولجهله بمقدار إساءته إليه. والكمال: هو مغفرة القادر العالم، وهو العزيز الحكيم، وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب...

وكذلك قول إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾ [الشُّعَرَاء: ٧٨-٨٠] ولم يقل: (وإذا أمرضني)؛ حفظًا للأدب مع الله.



وكذلك قول الخضر عليه السلام في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكَهْف: ٧٩]، ولم يقل: فأراد ربك أن أعيبها. وقال في الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكَهْف: ٨٢].

وكذلك قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجِن: ١٠]، ولم يقولوا: أراده بهم. ثم قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجِن الآية ١٠].

وألطف من هذا قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝٢٤﴾ [القَصَص: ٢٤] ولم يقل: أطعمني.

وقول آدم عليه السلام: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [الأَعْرَاف: ٢٣]، ولم يقل: رب قدّرتَ عليَّ وقضيت عليَّ.

[من كتاب: مدارج السالكين]

من أعظم الظُّلم وَالْجهل أَن تطلب التَّعْظِيم والتوقير من النَّاس وقلبك خَال من تَعْظِيم الله وتوقيره، فإنك توقّر المخْلُوق وتجلّه أَن يراك فِي حَال لَا توقّر الله أَن يراك عليه، قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نُوح: ١٣]، أَي لَا تعاملونه مُعَاملَة من توقّرونه. والتوقير: الْعَظَمَة، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿وَتُوَقِّرُوهُۚ﴾ [الفَتْح: ٩]، قَالَ الْحسن: مَا لكم لَا تعرفُون لله حَقًّا وَلَا تشكرونه. وقال مجاهد: لَا تبالون عَظَمَة ربكُم. وَقَالَ ابْن زيد: لَا ترَوْنَ لله طَاعَة. وَقَالَ ابْن عَبَّاس: لَا تعرفُون حق عَظمته.

وَهَذِه الْأَقْوَال ترجع إِلَى معنى وَاحِد وَهُوَ أَنهم لَو عظّموا الله وَعرفُوا حق عَظمته، وحّدوه وأطاعوه وشكروه. فطاعته سبحانه اجْتِنَاب مَعَاصيه وَالْحيَاء مِنْهُ بِحَسب وقاره فِي الْقلب، ولهذا قال بعض السّلف: ليعظم وقار الله فِي قلب أحدكُم أَن يذكرهُ عندما يستحي من ذكره، فيقرن اسْمه بِهِ، كما تَقول قبّح الله الْكَلْب وَالْخِنْزِير وَالنَّتن ونحو ذلك، فهذا من وقار الله.

ومن وقاره أَن لَا تعدل بِهِ شَيْئًا من خلقه، لَا فِي اللَّفْظ، بحيث تَقول: وَالله .. وحياتك .. مَالِي إِلَّا الله وَأَنت .. وَمَا شَاءَ الله وشئت ..

وَلَا فِي الْحبّ والتعظيم والإجلال، وَلَا فِي الطَّاعَة، فتطيع الْمَخْلُوق فِي أمره وَنَهْيه كَمَا تطيع الله بل أعظم، كَمَا عَلَيْهِ أَكثر الظَّلَمَة والفجرة، وَلَا فِي الْخَوْف والرجاء ويجعله أَهْون الناظرين إِلَيْهِ، وَلَا يستهين بِحقِّهِ وَيَقُول هُوَ مَبْنِيّ على المسَامحَة، وَلَا يَجعله على الفضلة، ويُقدّم حق الْمَخْلُوق عَلَيْه، وَلَا يكون الله وَرَسُوله فِي حدٍ وناحية، وَالنَّاس فِي نَاحيَة وحدٍ، فَيكون فِي الْحَد والشّق الَّذِي فِيهِ النَّاس دون الْحَد والشق الَّذي فِيهِ الله وَرَسُوله، وَلَا يُعْطي المخلوقَ فِي مخاطبته قلبَه ولبَّه وَيُعْطِي الله فِي خدمته بدنه وَلسَانه دون قلبه وروحه، وَلَا يَجْعَل مُرَاد نَفسه مقدمًا على مُرَاد ربه.

فَهَذَا كُله من عدم وقار الله فِي الْقلب، وَمن كَانَ كَذَلِك فَإِن الله لَا يلقِي لَهُ فِي قُلُوب النَّاس وقارًا وَلَا هَيْبَة، بل يسْقط وقاره وهيبته فِي قُلُوبهم، وَإِن وقّروه مَخَافَة شرّه، فَذَاك وقار بُغضٍ لَا وقار حب وتعظيم.

وَمن وقار الله: أَن يستحي من اطِّلَاعه على سره وضميره فَيرى فِيهِ مَا يكره، وَمن وقاره أَن يستحي مِنْهُ فِي الْخلْوَة أعظم مِمَّا يستحي من أكَابِر النَّاس.

وَالْمَقْصُود أَن من لَا يوقّر الله وَكَلَامه وَمَا آتَاهُ من الْعلم وَالْحكمَة، كَيفَ يطْلب من النَّاس توقيره وتعظيمه؟!

[من كتاب: الفوائد]

استقامة القلب بشيئين:

أحدهما: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب، فإذا تعارض حب الله تعالى وحب غيره سبق حب الله تعالى حب ما سواه فرتب على ذلك مقتضاه.

وما أسهل هذا بالدعوى وما أصعبه بالفعل، فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

الأمر الثاني: الذي يستقيم به القلب تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الآمِرِ النَّاهي، فإن الله تعالى ذمّ من لا يعظمه ولا يعظم أمره ونهيه، قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نُوح: ١٣]، قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله تعالى عظمة.

وما أحسن ما قال شيخ الإسلام في تعظيم الأمر والنهي: هو أن لا يُعارَضَا بترخُّصٍ جافٍ، ولا يُعارَضَا لتشدُّدٍ غالٍ، ولا يُحملا على علةٍ تُوهِنُ الانقيادَ.

ومعنى كلامه أن أول مراتب تعظيم الحق - عز وجل - تعظيم أمره ونهيه. وذلك المؤمن يعرف ربه عز وجل برسالته التي أرسل بها رسوله ﷺ إلى الناس كافة، ومقتضاها الانقياد لأمره ونهيه، وإنما يكون

ذلك بتعظيم أمر الله عز وجل واتباعه وتعظيم نهيه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيه دالاً على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والتصديق وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر.

فإن الرجل قد يتعاطى فعلَ الأمر لنظر الخلق، وطلب المنزلة والجاه عندهم، ويتقي المناهي خشية سقوطه من أعينهم، وخشية العقوبات الدنيوية من الحدود التي رتَّبها الشارع ﷺ على المناهي.

فهذا ليس فعلُه وتركُه صادرًا عن تعظيم الأمر والنهي ولا تعظيم الآمِر والنَّاهي، فعلامة التعظيم للأوامر: رعاية أوقاتها وحدودها والتفتيش على أركانها وواجباتها وكمالها، والحرص على تحيّنها في أوقاتها، والمسارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حق من حقوقها، كمن يحزن على فوت الجماعة ويعلم أنه تُقُبِّلَت منه صلاتُه منفردًا، فإنه قد فاته سبعةٌ وعشرون ضعفًا.

ولو أن رجلاً يعاني البيعَ والشراءَ تفوته صفقةٌ واحدةٌ في بلده من غير سفر ولا مشقة قيمتها سبعة وعشرون دينارًا لأكل يديه ندمًا وأسفًا، فكيف وكل ضعف مما تضاعف به صلاة الجماعة خير من ألف وألف ألف وما شاء الله تعالى.

فإذا فوّت العبد عليه هذا الربح قطعًا. وكثير من العلماء يقول: لا صلاة له. وهو بارد القلب فارغ من هذه المصيبة غير مرتاع لها، فهذا



عدم تعظيم أمر الله تعالى في قلبه، وكذلك إذا فاته أول الوقت الذي هو رضوان الله تعالى، أو فاته الصف الأول الذي يصلي الله وملائكته على ميامنه، ولو يعلم العبد فضيلته لجالد عليه ولكانت قُرعة.

وكذلك فوت الجمع الكثير الذي تضاعف الصلاة بكثرته وقلته، كلما كثر الجمع كان أحب إلى الله عز وجل، وكلما بعدت الخطا كانت خطوة تحط خطيئة، وأخرى ترفع درجة.

وكذلك فوّت الخشوع في الصلاة وحضور القلب فيها بين يدي الرب تبارك وتعالى الذي هو روحها ولبها، فصلاة بلا خشوع ولا حضور كبدن ميت لا روح فيه، أفلا يستحي العبد أن يهدي إلى مخلوق مثله عبدًا ميتًا أو جاريةً ميتةً؟ فما ظن هذا العبد أن تقع تلك الهدية ممن قصده بها من مَلِك أو من أمير أو غيره؟ فهكذا سواءٌ الصلاةُ الخالية عن الخشوع والحضور وجمعِ الهمة على الله تعالى فيها، بمنزلة هذا العبد. أو الأَمة. الميت الذي يريد إهداءه إلى بعض الملوك، ولهذا لا يقبلها الله تعالى منه وإن أَسقطت الفرض في أحكام الدنيا، ولا يثيبه عليها، فإنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عَقَل منها كما في السنن ومسند الإمام أحمد وغيره عن النبي ﷺ إنه قال: ﴿إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ ، إِلَّا عُشْرُ صَلَاتِهِ، تُسْعُهَا ثُمْنُهَا سُبْعُهَا سُدْسُهَا خُمْسُهَا رُبْعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا﴾[1].

[من كتاب: الوابل الصيب]

(١) أخرجه أحمد (ح١٩١٠٠)، والنسائي (ح٦١٥)، وأبو داود (ح٧٩٦).



فمن أراد الله به خيرًا فتح له باب الذل والانكسار، ودوام اللجأ إلى الله تعالى والافتقار إليه، ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحمده.

فالعارف سائرٌ إلى الله تعالى بين هذين الجناحين، لا يمكنه أن يسير إلا بهما، فمتى فاته واحد منهما فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه.

قال شيخ الإسلام: العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل.

فمشاهدة المنة توجب له المحبة والحمد والشكر لولي النعم والإحسان، ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والانكسار والافتقار والتوبة في كل وقت، وأن لا يرى نفسه إلا مفلسًا، وأقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس، فلا يرى لنفسه حالاً ولا مقامًا ولا سببًا يتعلق به ولا وسيلة منه يَمُنُّ بها، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصِّرْف، والإفلاس المحض، دخولَ من كسر الفقرُ والمسكنُة قلبَه، حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع، وشملته الكسرة من كل جهاته، وشهد ضرورته إلى ربه عز وجل،

وكمال فاقته وفقره إليه، وأن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة، وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى، وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وخسر خسارة لا تجبر، إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته.

ولا طريق إلى الله أقرب من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوى.

والعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها: حب كامل، وذل تام.

ومنشأ هذين الأصلين عن ذينك الأصلين المتقدمين وهما: مشاهدة المنة التي تورث المحبة، ومطالعة عيب النفس والعمل التي تورث الذل التام، وإذا كان العبد قد بنى سلوكه إلى الله تعالى على هذين الأصلين لم يظفر عدوُّه به إلا على غِرَّة وغِيلَة، وما أسرع ما يُنعشه الله عز وجل ويجبره ويتداركه برحمته.

[من كتاب: الوابل الصيب]



الرضا بالله ربًا: أن لا يتخذ ربًا غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره، ويُنزِل به حوائجه، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأَنۡعَام: ١٦٤]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سيدًا وإلهًا. يعني فكيف أطلب ربًا غيره، وهو رب كل شيء؟ وقال في أول السورة: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأَنۡعَام: ١٤]، يعني معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأ، وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة.

وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾ [الأَنۡعَام: ١١٤]، أي: أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه؟ وقد أنزله مفصلاً، مبينًا كافيًا شافيًا.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل، رأيتَها هي نفس الرضا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً، ورأيتَ الحديث يترجم عنها، مشتقًا منها.

فكثير من الناس يرضى بالله ربًّا، ولا يبغي ربًّا سواه، لكنه لا يرضى به وحده وليًّا وناصرًا، بل يوالي من دونه أولياء، ظنًّا منه أنهم يُقرِّبونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك. وهذا عين

الشرك. بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء.

والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء، وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فيه، فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته. فموالاة أوليائه لون واتخاذ الولي من دونه لون. ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه؛ فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكمًا، يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه. وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد:

أن لا يتخذ سواه ربًا، ولا إلهًا، ولا غيره حَكمًا.

[من كتاب: مدارج السالكين]



مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله، على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع، ولهذا لم يحك الله سبحانه عن أمةِ نبيٍّ صدَّقت نبيَّها وآمنت بما جاء به، أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه وبلّغها عن ربها، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها. بل انقادت وسلّمت وأذعنت، وما عَرَفَتْ من الحكمة عرفته، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها وإيمانها واستسلامها على معرفته، ولا جعلت طلبه من شأنها.

وكان رسولها أعظم في صدورها من سؤالها عن ذلك، كما في الإنجيل: (يا بني إسرائيل لا تقولوا: لِمَ أمر ربُّنا، ولكن قولوا: بمَ أمر ربنا)، ولهذا كانت هذه الأمة التي هي أكمل الأمم عقولاً ومعارف وعلومًا لا تسأل نبيها لِمَ أمر الله بذلك، ولِمَ نهى عن كذا، ولِمَ قدر كذا، ولِمَ فعل كذا لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام، وأن قَدَم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم، وذلك يوجب تعظيم الرب تعالى وأمره ونهيه، فلا يتم الإيمان إلا بتعظيمه ولا يتم تعظيمه إلا بتعظيم أمره ونهيه، فعلى قدر تعظيم العبد لله سبحانه يكون تعظيمه لأمره ونهيه، وتعظيم الأمر دليل على تعظيم الآمر، وأول مراتب



تعظيم الأمر: التصديق به ثم العزم الجازم على امتثاله ثم المسارعة إليه والمبادرة به رغم القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه، ثم فعله لكونه مأمورًا به، بحيث يتوقف الإنسان على معرفة حكمته، فإن ظهرت له فعله وإلا عطّله، فهذا من عدم عظمته في صدره بل يُسلّم لأمر الله وحكمته ممتثلاً ما أمر به، سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر، فإن ورد الشرع بذكر حكمة الأمر أو فَقِهَهَا العقلُ، كانت زيادة في البصيرة والداعية في الامتثال، وإن لم تظهر له حكمته لم يُوهِن ذلك انقيادَه ولم يقدح في امتثاله.

فالمعظِّم لأمر الله يُجري الأوامر والنواهي على ما جاءت، لا يُعلِّلُها بعِلل تُوهِنُها وتخدش في وجه حسنها، فضلاً عن أن يعارضها بعلل تقتضي خلافها، فهذا حال ورثة إبليس، والتسليم والانقياد والقبول حال ورثة الأنبياء.

[من كتاب: الصواعق المرسلة]



تعظيم الله يوجب التوكل عليه سبحانه

إن قلتَ: فما معنى التوكل والاستعانة؟

قلتُ: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس، فيوجب له هذا اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وطمأنينةً به، وثقةً به، ويقينًا بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه مَلِيٌّ به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أم أبوه.

فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينوبه من رغبة ورهبة هما مَلِيَّان بهما. فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس همه على إنزال ما ينويه بهما، فهذه حال المتوكل، ومن كان هكذا مع الله، فالله كافيه ولابد، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطَّلَاق: ٣] أي كافيه، والحسب الكافي، فإن كان ـ مع هذا ـ من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة.

[من كتاب: مدارج السالكين]



(الله تعالى) هو الجواد لذاته، وَجُودُ كل جوادٍ خَلَقَهُ الله ويخلقه أبدًا أقلُّ من ذرة بالقياس إلى جُودِهِ، فليس الجواد على الإطلاق إلا هو، وَجُود كل جَوَاد فمِن جوده، ومحبته للجود والإعطاء والإحسان، والبر والإنعام والإفضال فوق ما يخطر ببال الخلق، أو يدور في أوهامهم، وفرحه بعطائه وجوده وإفضاله أشدّ من فرح الآخذ بما يُعطاه ويأخذه، أحوج ما هو إليه أعظم ما كان قدْرًا، فإذا اجتمع شدة الحاجة وعِظم قدْر العطية والنفع بها، فما الظن بفرح المعطي؟! ففرح المعطي سبحانه بعطائه أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه، ولله المثل الأعلى، إذ هذا شأن الجواد من الخلق، فإنه يحصل له من الفرح والسرور، والابتهاج واللذة بعطائه وجوده فوق ما يحصل لمن يعطيه، ولكن الآخذ غائب بلذة أخذه، عن لذة المعطي، وابتهاجه وسروره، هذا مع كمال حاجته إلى ما يعطيه وفقره إليه، وعدم وثوقه باستخلاف مثله، وخوف الحاجة إليه عند ذهابه، والتعرض لذل الاستعانة بنظيره ومن هو دونه، ونفسه قد طبعت على الحرص والشح.

فما الظن بمن تقدس وتنزه عن ذلك كله؟ ولو أن أهل سماواته وأرضه، وأول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم، ورطبهم ويابسهم،



قاموا في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كل واحد ما سأله ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة.

وهو الجواد لِذَاتِه، كما أنه الحي لِذَاتِه ، العليم لِذَاتِه، السميع البصير لِذَاتِه، فجوده العالي من لوازم ذاته، والعفو أحب إليه من الانتقام، والرحمة أحب إليه من العقوبة، والفضل أحب إليه من العدل، والعطاء أحب إليه من المنع.

فإذا تعرّض عبدُه ومحبوبُه الذي خلقه لنفسه، وأعدّ له أنواع كرامته، وفضّله على غيره، وجعله محل معرفته، وأنزل إليه كتابه، وأرسل إليه رسوله، واعتنى بأمره ولم يهمله، ولم يتركه سدى، فتعرض لغضبه، وارتكب مساخطه وما يكرهه وأبق منه، ووالى عدوه وظاهره عليه، وتحيز إليه، وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه التي هي أحب شيء إليه، وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر، وتعرض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه، وأن يصير غضبه وسخطه في موضع رضاه، وانتقامه وعقوبته في موضع كرمه وبره وعطائه، فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحب إليه منه، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان.

فبينما هو حبيبه المقرّب المخصوص بالكرامة، إذ انقلب آبقًا



شاردًا، رادًّا لكرامته، مائلاً عنه إلى عدوه، مع شدة حاجته إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

فبينما ذلك الحبيب مع العدو في طاعته وخدمته، ناسيًا لسيده، منهمكًا في موافقة عدوه، قد استدعى من سيده خلاف ما هو أهله إذ عرضت له فكرة فتذكر بِرَّ سيده وعطفه وجوده وكرمه، وعلم أنه لابدّ له منه، وأن مصيره إليه، وعَرْضَه عليه، وأنه إن لم يقدِم عليه بنفسه قُدِم به عليه على أسوأ الأحوال، ففر إلى سيده من بلد عدوه، وجَدَّ في الهرب إليه حتى وصل إلى بابه، فوضع خده على عتبة بابه، وتوسد ثرى أعتابه، متذللاً متضرعًا، خاشعًا باكيًا آسفًا، يتملق سيده ويسترحمه، ويستعطفه ويعتذر إليه، قد ألقى بيده إليه، واستسلم له وأعطاه قياده، وألقى إليه زمامه، فعلم سيده ما في قلبه، فعاد مكان الغضب عليه رضًا عنه، ومكان الشدة عليه رحمة به، وأبدله بالعقوبة عفوًا، وبالمنع عطاءً، وبالمؤاخذة حلمًا، فاستدعى بالتوبة والرجوع من سيده ما هو أهله، وما هو موجب أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، فكيف يكون فرح سيده به؟ وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعًا واختيارًا، وراجع ما يحبه سيده منه برضاه، وفتح طريق البر والإحسان والجود، التي هي أحب إلى سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة؟

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين أنه حصل له



شرود وإباق من سيده، فرأى في بعض السكك بابًا قد فُتِح، وخرج منه صبيٌ يستغيث ويبكي، وأمُّه خلفه تطرده حتى خرج، فأغلقت الباب في وجهه ودخلت، فذهب الصبي غيرَ بعيد، ثم وقف مفكِّرًا، فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أُخرج منه، ولا من يُؤويه غير والدته، فرجع مكسورَ القلب حزينًا، فوجد البابَ مُرَتَّجًا، فتوسده ووضع خده على عتبة الباب ونام، فخرجت أمه، فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته تُقبِّله وتبكي، وتقول: يا ولدي، أين تذهب عني؟ ومن يُؤويك سواي؟ ألم أقل لك: لا تخالفني، ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبِلتُ عليه من الرحمة بك، والشفقة عليك، وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت.

فتأمل قول الأم: لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبِلتُ عليه من الرحمة والشفقة.

وتأمل قوله ﷺ: **«لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها»**(١)، وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟

فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة

---

(١) عن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه قَالَ: قَدِمَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَبْيٍ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَسْعَى، إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا في السَّبْي أَخَذَتْهُ فَأَلْزَقَتْهُ بِبَطْنِها، فَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ رسُولُ اللَّه ﷺ: «أَتُرَوْنَ هَذِهِ المَرْأَةَ طارِحَةً وَلَدَهَا في النَّارِ؟» قُلْنَا: لا وَاللَّهِ، فَقَالَ: «للَّهُ أَرْحَمُ بِعِبادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا» متفقٌ عليه.

عنه، فإذا تاب إليه فقد استدعى منه ما هو أهله وأولى به.

فهذه نبذة يسيرة تطلعك على سِرّ فرح الله بتوبة عبده أعظم من فرح هذا الواجد لراحلته في الأرض المهلكة، بعد اليأس منها.

ووراء هذا ما تجفو عنه العبارة، وتدق عن إدراكه الأذهان.

[من كتاب: مدارج السالكين]

(إذا شاهد العبد) جلال الرب تعالى... شاهد بقلبه قيومًا قاهرًا فوق عباده، مستويًا على عرشه، منفردًا بتدبير مملكته، آمرًا ناهيًا، مرسلاً رسله، ومنزلاً كتبه، يرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويحب ويبغض، ويرحم إذا استرحم، ويغفر إذا استغفر، ويعطي إذا سُئل، ويُجيب إذا دُعي، ويُقيل إذا استقيل، أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأعز من كل شيء، وأقدر من كل شيء، وأعلم من كل شيء، وأحكم من كل شيء، فلو كانت قوى الخلائق كلهم على واحد منهم، ثم كانوا كلهم على تلك القوة، ثم نُسبت تلك القوى إلى قوته تعالى لكانت أقل من قوة البعوضة بالنسبة إلى قوة الأسد.

ولو قُدِّر جمال الخلق كلهم على واحد منهم، ثم كانوا كلهم بذلك الجمال، ثم نُسب إلى جمال الرب تعالى لكان دون سراج ضعيف بالنسبة إلى عين الشمس.

ولو كان علم الأولين والآخرين على رجل منهم، ثم كان كل الخلق على تلك الصفة، ثم نُسب إلى عِلْم الربّ تعالى لكان ذلك بالنسبة إلى علم الرب كنقرة عصفور في بحر، وهكذا سائر صفاته، كسمعه وبصره، وسائر نعوت كماله، فإنه يسمع ضجيج الأصوات



باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، سواء عنده من أسرَّ القول ومن جهر به، فالسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة، يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى نياط عروقها ومجاري القوت في أعضائها، يضع السماوات على إصبع من أصابع يده، والأرض على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، ويقبض سماواته بإحدى يديه، والأرضين باليد الأخرى، فالسماوات السبع في كَفِّه كخردلة في كف العبد.

ولو أن الخلق كلهم من أولهم إلى آخرهم قاموا صفًا واحدًا ما أحاطوا بالله عز وجل، لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سُبُحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه.

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد: اضمحلت فيه الشواهد المتقدمة من غير أن تعدم، بل تصير الغلبة والقهر لهذا الشاهد، وتندرج فيه الشواهد كلها، ومن هذا شاهده، فله سلوك وسير خاص، ليس لغيره ممن هو عن هذا في غفلة، أو معرفة مجملة.

فصاحب هذا الشاهد سائر إلى الله في يقظته ومنامه، وحركته وسكونه وفطره وصيامه، له شأن وللناس شأن، هو في واد والناس في واد.

[من كتاب: مدارج السالكين]



فإن الله جلّ ثناؤه وتقدست أسماؤه إذا أراد أن يُكرم عبدًا بمعرفته، ويجمع قلبه على محبته، شرح صدره لقبول صفاته العُلى وتلقيها من مشكاة الوحي، فإذا ورد عليه شيء منها قابَلَه بالقبول وتلقّاه بالرضا والتسليم، وأذعن له بالانقياد، فاستنار به قلبه واتسع له صدره وامتلأ به سرورًا ومحبة، فعَلِم أنه تعريف من تعريفات الله تعالى تعرف به على لسان رسوله، فأنزل تلك الصفة من قلبه منزلة الغذاء أعظم ما كان إليه فاقة، ومنزلة الشفاء أشد ما كان إليه حاجة، وسكن إليها قلبه، فجال من المعرفة في ميادينها، وأسام عين بصيرته في رياضها وبساتينها، لتيقنه بأن شرف العلم تابع لشرف معلومه، ولا معلومَ أعظمُ وأجلُّ ممن هذه صفته، وهو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى، وأن شرفه أيضًا بحسب الحاجة إليه، وليست حاجة الأرواح قط إلى شيء أعظم منها إلى معرفة باريها وفاطرها ومحبته وذكره والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه والزلفى عنده، ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلما كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف وله أطلب وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل وإليه أكره ومنه أبعد.

والله تعالى يُنزل العبد من نفسه حيث ينزله العبد من نفسه، فمن

كان لذكر أسمائه وصفاته مبغضًا، وعنها نافرًا منفرًا، فالله له أشد بغضًا، وعنه أعظم إعراضًا، وله أكبر مقتًا، حتى تعود القلوب إلى قلبين: قلبٌ ذِكرُ الأسماء والصفات قُوتُه وحياتُه ونعيمُه وقرةُ عينه، لو فارقه ذكرها ومحبتها لحظة لاستغاث: يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك، فلسان حاله يقول:

يراد من القلب نسيانكم

وتأبى الطباع على الناقل

ويقول:

إذا مرضنا تداوينا بذكركم

فنترك الذكر أحيانا فننتكس

ومن المحال أن يذكر القلب من هو محارب لصفاته نافر عن سماعها معرض بكليّته عنها زاعم أن السلامة في ذلك. كلا والله إن هو إلا الجهالة والخذلان، والإعراض عن العزيز الرحيم، فليس القلب الصحيح قط إلى شيء أشوق منه إلى معرفة ربه تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه، ولا أفرح بشيء قط كفرحه بذلك، وكفى بالعبد عمى وخذلانًا أن يضرب على قلبه سرادق الإعراض عنها والنفرة والتنفير، والاشتغال بما لو كان حقًا لم ينفع إلا بعد معرفة الله والايمان به وبصفاته وأسمائه.

والقلب الثاني: قلب مضروب بسياط الجهالة، فهو عن معرفة ربه ومحبته مصدود، وطريق معرفة أسمائه وصفاته كما أنزلت عليه مسدود، قد قمّش شبهًا من الكلام الباطل، وارتوى من ماء آجن غير طائل، تعج منه آيات الصفات وأحاديثها إلى الله عجيجًا، وتضج منه إلى منزلها ضجيجًا بما يسومها تحريفًا وتعطيلاً، ويؤوِّل معانيها تغييرًا وتبديلاً، وقد أعدّ لدفعها أنواعًا من العُدد، وهيأ لردها ضروبًا من القوانين، وإذا دُعي إلى تحكيمها أبى واستكبر.

[من كتاب: الكافية الشافية]



علم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع، والعطاء والمنع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة، يثمر له عبودية التوكل عليه باطنًا، ولوازم التوكل وثمراته ظاهرًا.

وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه فيثمر له ذلك الحياء باطنًا، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح.

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه.

وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه، تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعًا من العبودية الظاهرة هي موجباتها.

[من كتاب: مفتاح دار السعادة]



آثار تجلي الله تعالى لعباده بصفاته

القرآن كلام الله، وقد تجلَّى الله فيه لعباده بصفاته، فتارة يتجلَّى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع الأصوات، ويذوب الكِبْرُ كما يذوب الملح في الماء.

وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال. وهو كمال الأسماء وجمال الصفات وجمال الأفعال الدال على كمال الذات. فيستنفد حُبُه من قلب العبد قوة الحب كلها بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله، فيصبح فؤاد عبده فارغًا إلا من محبته، فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به أبى قلبه وأحشاؤه ذلك كل الإباء، كما قيل:

يراد من القلب نسيانكم

وتأبى الطباع على الناقل

فتبقى المحبة له طبعًا لا تكلفًا.

وإذا تجلى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان، انبعثت قوة الرجاء من العبد، وانبسط أمله، وقوي طمعه، وسار إلى ربه وحادي الرجاء يحدو ركاب سيره، وكلما قوي الرجاء جدّ في العمل، كما أن الباذر كلما قوي طمعه في المَغَلّ غلق أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه قصر في البذر.



وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة، انقمعت النفس الأمَّارة، وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب، والحرص على المحرمات، وانقبضت أعِنَّة رعوناتها، فأحضرت المطيَّة حظها من الخوف والخشية والحذر.

وإذا تجلى بصفات الأمر والنهي والعهد والوصية وإرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع، انبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره والتبليغ لها والتواصي بها، وذكرها وتذكرها، والتصديق بالخبر والامتثال للطلب والاجتناب للنهى.

وإذا تجلى بصفة السمع والبصر والعلم انبعث من العبد قوة الحياء، فيستحي من ربه أن يراه على ما يكره، أو يسمع منه ما يكره، أو يُخفى في سريرته ما يمقته عليه، فتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع، غير مهملة ولا مرسله تحت حكم الطبيعة والهوى.

وإذا تجلى بصفات الكفاية والحسب والقيام بمصالح العباد وسَوْق أرزاقهم إليهم ودفع المصائب عنهم، ونصره لأوليائه وحمايته لهم، ومعيّته الخاصة لهم، انبعثت من العبد قوة التوكل عليه والتفويض إليه، والرضا به وبكل ما يجريه على عبده ويقيمه مما يرضى به هو سبحانه. والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن



اختياره لعبده وثقته به ورضاه بما يفعله به ويختاره له.

وإذا تجلى بصفات العز والكبرياء، أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته والانكسار لعزته والخضوع لكبريائه، وخشوع القلب والجوارح له، فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسَمْته، ويذهب طيشُه وقوتُه وحدتُه.

[من كتاب: الفوائد]

قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ۝٥٢﴾ [الأَحۡزَاب: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحَدِيد: ٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ [العَلَق: ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطُّور: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾، [غَافِر: ١٩] إلى غير ذلك من الآيات.

وفي حديث جبريل عليه السلام: أنه سأل النبي ﷺ عن الإحسان؟ فقال له: «أنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَراهُ، فَإِن لم تَكُنْ تَرَاهُ فإِنهُ يَراكَ»(١).

المراقبة تعريفها: دوام عِلم العبد، وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه. فاستدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله. وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة، وكل نَفَسٍ، وكل طرفة عين. والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات، فكيف بحال المريدين؟ فكيف بحال العارفين؟

قال الجريري: من لم يحكم بينه وبين الله تعالى التقوى والمراقبة لم

---

(١) أخرجه البخاري (ح٥٠)، ومسلم (ح٩).

يصل إلى الكشف والمشاهدة.

وقيل: من راقب الله في خواطره، عصمه في حركات جوارحه.

وقيل لبعضهم: متى يهش الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهلكة؟ فقال: إذا علم أن عليه رقيبًا.

وقال الجنيد: من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربه لا غير.

وقال ذو النون: علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظّم الله، وتصغير ما صغّر الله.

وقيل: الرجاء يحرك إلى الطاعة، والخوف يبعد عن المعاصي، والمراقبة تؤديك إلى طريق الحقائق.

وقيل: المراقبة مراعاة القلب لملاحظة الحق مع كل خطرة وخطوة.

وقال الجريري: أمرنا هذا مبني على فصلين: أن تلزم نفسك المراقبة لله، وأن يكون العلم على ظاهرك قائمًا.

وقال إبراهيم الخوَّاص: المراقبة خلوص السر والعلانية لله عز وجل.

وقيل: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريق: المحاسبة والمراقبة، وسياسة عمله بالعلم.

وقال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري: إذا جلست للناس فكن واعظًا لقلبك ونفسك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك.

وأرباب الطريق مُجْمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر: سبب لحفظها في حركات الظواهر. فمن راقب الله في سره، حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته.

والمراقبة هي التعبد باسمه الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير، فمن عقل هذه الأسماء، وتعبد بمقتضاها: حصلت له المراقبة. والله أعلم.

[من كتاب: إغاثة اللهفان]

الطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة تَرِد منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه، وترُدُّ قلبَه الشاردَ إليه حتى كأنه جالس بين يديه، يسمع به ويبصر به ويتحرك به ويبطش به، فتسري تلك الطمأنينة في نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة، تجذب روحه إلى الله، ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقة إلا بالله وبذكره. وهو كلامه الذي أنزله على رسوله. كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرَّعۡد: ٢٨].

فإن طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج عنه، وهذا لا يتأتى بشيء سوى الله تعالى وذكره البتة، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه وبه غرور، والثقة به عجز.

قضى الله سبحانه وتعالى قضاءً لا مردّ له: أن من اطمأن إلى شيء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته كائنًا من كان، بل لو اطمأن العبد إلى علمه وحاله وعمله سلبه وزايله، وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين إلى سواه أغراضًا لسهام البلاء، ليعلم عبادُه وأولياؤه أن المتعلق بغيره مقطوع، والمطمئن إلى سواه عن مصالحه

ومقاصده مصدود وممنوع.

وحقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة، أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله فتتلقاه بالقبول، والتسليم، والإذعان، وانشراح الصدر له، وفرح القلب به، فإنه مُعرِّف من معرفات الرب سبحانه إلى عبده على لسان رسوله، فلا يزال القلب في أعظم القلق والاضطراب في هذا الباب حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى وصفاته وتوحيده وعلوه على عرشه، وتكلمه بالوحي بشاشة قلبه، فينزل ذلك عليه نزول الماء الزلال على القلب الملتهب بالعطش، فيطمئن إليه، ويسكن إليه، ويفرح به، ويلين له قلبه ومفاصله حتى كأنه شاهد الأمر كما أخبرت به الرسل، بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس في الظهيرة لعينه، فلو خالفه في ذلك مَن بين شرق الأرض وغربها لم يلتفت إلى خلافهم.

قال إذا استوحش من الغربة: قد كان الصِّدِّيق الأكبر مطمئنًا بالإيمان وحده، وجميع أهل الأرض يخالفه، وما نقص ذلك من طمأنينته شيئًا.

فهذا أول درجات الطمأنينة ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه.

وهذا أمر لا نهاية له فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان التي عليه بناؤه.

ثم يطمئن إلى خبره عمّا بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة، حتى كأنه يشاهد ذلك كله عيانًا، وهذا حقيقة اليقين الذي وصف به سبحانه وتعالى أهل الإيمان حيث قال: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البَقَرَة: ٤]، فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتى يطمئن القلب إلى ما أخبر الله سبحانه به عنها طمأنينة إلى الأمور التي لا يشك فيها ولا يرتاب، فهذا هو المؤمن حقًا باليوم الآخر، كما في حديث حارثة: أصبحتُ مؤمنًا. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«انْظُرْ مَا تَقُولُ، فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟»**، قال: يَا رَسُولَ اللهِ، عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، فَأَسْهَرْتُ لَيْلِي، وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، فَكَأَنِّي بِعَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَعَاوُونَ فِيهَا. فقال: **« أَبْصَرْتَ فَالْزَمْ. عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ تَعَالَى الإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ»**[1].

[من كتاب: الروح]

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣/٢٦٦).

نبأ القوم عجيب وأمرهم خفي إلا على من له مشاركة مع القوم، فإنه يطلع من حالهم على ما يُريه إياه القدْر المشترك.

وجملة أمرهم أنهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله، وغُمِرَت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته، فَسَرَتِ المحبةُ في أجزائهم، فلم يبقَ فيها عِرق ولا مفصل إلا وقد دخله الحب، قد أنساهم حُبه ذِكرَ غيره، وأوحشهم أنسهم به ممن سواه، قد فَنَا بحبه عن حب من سواه، وبذكره عن ذكر من سواه، وبخوفه ورجائه، والرغبة إليه والرهبة منه، والتوكل عليه والإنابة إليه، والسكون إليه والتذلل والانكسار بين يديه. عن تعلق ذلك منهم بغيره.

فإذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدت أنفاسه إلى إلهه ومولاه، واجتمع همّه عليه، متذكرًا صفاته العلى وأسماءَه الحسنى، ومشاهدًا له في أسمائه وصفاته، قد تجلَّت على قلبه أنوارُها، فانصبغ قلبه بمعرفته ومحبته، فبات جسمه في فراشه يتجافى عن مضجعه، وقلبه قد أوى إلى مولاه وحبيبه فآواه إليه وأسجده بين يديه خاضعًا خاشعًا ذليلاً منكسرًا من كل جهة من جهاته، فيا لها من سجدة! وما أشرفها من سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء. قيل لبعض العارفين:

أيسجد القلب بين يدي ربه؟ قال: أي والله، بسجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم القيامة.

فشتان بين قلب يبيت عند ربه، قد قطع في سفره إليه بيداء الأكوان، وخرق حُجُبَ الطبيعة، ولم يقف عند رسم، ولا سَكَنَ إلى عِلْم، حتى دخل على ربه في داره، فشاهد عِزَّ سلطانه، وعظمة جلاله وعلو شأنه، وبهاء كماله وهو مستوٍ على عرشه يُدبر أمر عباده، وتصعد إليه شؤون العباد، وتُعرض عليه حوائجهم وأعمالهم، فيأمر فيها بما يشاء، فينزل الأمر من عنده نافذًا، فيشاهد المَلِكَ الحق قيومًا بنفسه، مقيمًا لكل ما سواه، غنيًا عن كل من سواه، وكل من سواه فقيرٌ إليه.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرَّحۡمَٰن: ٢٩]، يغفر ذنبًا، ويفرِّج كربًا، ويفك عانيًا، وينصر ضعيفًا، ويجبر كسيرًا، ويُغْنِي فقيرًا، ويُميت ويُحيي، ويُسعِد ويُشقِي، ويُضل ويَهدي، ويُنعم على قوم ويسلب نعمته عن آخرين، ويُعز أقوامًا ويُذل آخرين، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، ويشهده كما أخبر عنه أعلم الخلق به وأصدقهم في خبره حيث يقول في الحديث الصحيح: **«يدُ اللهِ ملأى لا يُغِيضُها نَفَقَةٌ، سحَّاءُ اللَّيْلَ و النهارَ، أرأيتم ما أنفقَ منذُ خلَقَ السماواتِ و الأرضِ؟ فإِنَّهُ لم يَغِضْ ما في يدِهِ، وكان عرْشُهُ على الماءِ، وبيدِهِ الميزانُ،**



يخفِضُ ويرْفَعُ﴾[1]، فيشاهده كذلك يقسم الأرزاق، ويُجزل العطايا، ويَمُنّ بفضله على من يشاء من عباده بيمينه، وباليد الأخرى الميزان يخفض به من يشاء ويرفع به من يشاء، عدلاً منه وحكمة، لا إله إلا هو العزيز الحكيم، فيشهده وحده القيوم بأمر السموات والأرض ومن فيهن، ليس له بواب فيستأذن، ولا حاجب فيدخل عليه، ولا وزير فيؤتى، ولا ظهير فيستعان به، ولا ولي من دونه فيشفع به إليه، ولا نائب عنه فيُعرِّفه حوائج عباده، ولا معين له فيعاونه على قضائها.

أحاط سبحانه بها علمًا، ووسعها قدرة ورحمة، فلا تزيده كثرة الحاجات إلا جودًا وكرمًا، ولا يُشغله منها شأن عن شأن، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين. لو اجتمع أول خلقه وآخرهم وإنسهم وجنهم، وقاموا في صعيد واحد ثم سألوه، فأعطى كُلاً منهم مسألته ما نقص ذلك مما عنده ذرة واحدة، إلا كما ينقص المخيط البحر إذا غمس فيه. ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئًا، ذلك بأنه الغني الجواد الماجد، فعطاؤه كلام، وعذابه كلام، (إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون)، ويشهده كما أخبر عنه أيضًا الصادق المصدوق، حيث يقول: ﴿إِنّ الله تَعَالَى لَا يَنامُ وَلَا يَنْبَغِي لهُ أَنْ يَنامَ يَخْفِضُ القِسْطَ

---

(١) أخرجه البخاري (ح٤٦٨٤)، ومسلم (ح٩٩٣).



ويَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إليهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهارِ وعَمَلُ النَّهارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1].

وبالجملة فيشهده في كلامه، فقد تجلى سبحانه وتعالى لعباده في كلامه، وتراءى لهم فيه، وتعرّف إليهم فيه. فبُعدًا وتبًا للجاحدين والظالمين. (أفي الله شك فاطر السموات والأرض، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)، فإذا صارت صفات ربه وأسماؤه مشهدًا لقلبه أنْسَتْه ذكرَ غيره، وشغلته عن حب من سواه، وحديث دواعي قلبه إلى حبه تعالى بكل جزء من أجزاء قلبه وروحه وجسمه، فحينئذ يكون الرب سبحانه سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فيه يسمع، وبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي، كما أخبر عن نفسه على لسان رسوله.

[من كتاب: طريق الهجرتين]

---

(١) أخرجه مسلم (ح١٧٩).



إذا امتلأ قلب (العبد) بمحبة الله، والإخلاص له، ومعاملته وإيثار مرضاته، والتقرب إليه، وقرة العين به، والإنس به، واطمأن إليه، وسكن إليه، واشتاق إلى لقائه، واتخذه وليًا دون من سواه، بحيث فوّض إليه أموره كلها، ورضي به وبأقضيته، وفنيَ بحبه وخوفه ورجائه وذكره والتوكل عليه عن كل ما سواه . فإنه لا يبقى في قلبه متسع لشهود أذى الناس له البتة، فضلاً عن أن يشتغل قلبه وفكره وسِرّه بتطلب الانتقام والمقابلة، فهذا لا يكون إلا من قلب ليس فيه ما يغنيه عن ذلك ويعوضه منه، فهو قلب جائع غير شبعان، فإذا رأى أي طعام رآه هَفَتْ إليه نوازعُه، وانبعثت إليه دواعيه، وأما من امتلأ قلبه بأعلى الأغذية وأشرفها فإنه لا يلتفت إلى ما دونها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

[من كتاب: مدارج السالكين]



ضعف تعظيم الله عقوبة

من عقوبات الذنوب: أنها تُضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتُضعف وقارَه في قلب العبد ولابد، شاء أم أبى، ولو تمكّن وقارُ الله وعظمتُه في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه، وربما اغتر المغتر وقال: إنما يحملني على المعاصي حسنُ الرجاء، وطمعي في عفوه، لا ضعف عظمته في قلبي. وهذا من مغالطة النفس؛ فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته تحول بينه وبين الذنوب، والمتجرئون على معاصيه ما قدروا الله حق قدره، وكيف يقدره حق قدره، أو يعظمه ويكبره، ويرجو وقاره ويُجِلّه من يهون عليه أمره ونهيه؟! هذا من أمحل المحال، وأبين الباطل، وكفى بالعاصي عقوبةً أن يضمحل من قلبه تعظيمُ الله جل جلاله، وتعظيمُ حرماته، ويهون عليه حقُّه.

ومن بعض عقوبة هذا: أن يرفع الله عز وجل مهابته من قلوب الخلق، ويهُون عليهم، ويستخفون به، كما هان عليه أمره واستخف به، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الخلق، وعلى قدر تعظيمه لله وحرماته يعظمه الناس، وكيف ينتهك عبدٌ حرمات الله، ويطمع أن لا ينتهك الناس حرماته؟! أم كيف يهون

عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس؟! أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق؟!

وقد أشار سبحانه إلى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب، وأنه أركس أربابها بما كسبوا، وغطى على قلوبهم، وطبع عليها بذنوبهم، وأنه نسيهم كما نسوه، وأهانهم كما أهانوا دينه، وضيعهم كما ضيعوا أمره، ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له: (ومن يهن الله فما له من مكرم)، فإنهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه، أهانهم الله فلم يكن لهم من مُكْرِم بعد أن أهانهم الله، ومن ذا يكرم من أهانه الله؟! أو يهن من أكرمه الله؟!

[من كتاب: الداء والدواء]

لم يَقدِرِ اللهَ حق قدره من هان عليه أمره فعصاه، ونهيه فارتكبه، وحقه فضيعه، وذِكْرَه فأهمله، وغفل قلبه عنه، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه، وطاعة المخلوق أهم من طاعته. فلله الفَضْلَة من قلبه وقوله وعمله.

هواه المقدم في ذلك كله لأنه المهم عنده، يستخف بنظر الله إليه، واطلاعه عليه، وهو في قبضته، وناصيته بيده، ويُعظِّم نظرَ المخلوق إليه واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه، يستحيي من الناس ولا يستحيي من الله، ويخشى الناس ولا يخشى الله، ويعامل الخلق بأفضل ما يقدر عليه، وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره، وإن قام في خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد، وبذل النصيحة وقد أفرغ له قلبه وجوارحه، وقدّمه على كثير من مصالحه، حتى إذا قام في حق ربه قام قيامًا لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله، وبذل له من ماله ما يستحي أن يواجه به مخلوقًا مثله.

فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه؟!

[من كتاب: الداء والدواء]

فهرس

تعظيم الله في الصلاة ١٠
تعظيم الله في الصلاة ١٢
تعظيم الله في الصلاة ١٣
تعظيم الله في الصلاة ١٤
الصلاة ومحبة الله تعالى.. ١٦
اقتران الملك والحمد والنعمة في التلبية........................ ١٨
تدبر القرآن يُورث تعظيم الله ومحبته........................ ١٩
ذكر الله تعالى للعبد.. ٢٢
من فوائد الذكر.. ٢٥
من علامات صحة القلب.. ٢٦
القلب الصحيح ٢٧
الافتقار إلى الله تعالى.. ٢٩
عبدك وابن عبدك وابن أمتك ٣١
روح كلمة التوحيد ٣٤

حديث البطاقة ٣٧

محبة الله تعالى أصل الدين ٣٩

المحبة قوت القلوب ٤٢

إذا نقصت المحبة ٤٥

أنفع الحب ٤٨

دواعٍ لمحبة الله تعالى ٥١

كيف لا يُحَب من هذا شأنه؟! ٥٦

كمال القلب ٦٠

أعظم نعيم الدنيا وأعظم لذَّات الآخرة ٦١

أكمل الناس لذَّة ٦٦

الذل والانكسار لله تعالى ٦٨

مشهد العبودية والمحبة ٧٢

الأدب مع الله تعالى ٧٦

توقير الله عز وجل ٨٠

مقتضى تعظيم الله عز وجل ٨٢

من أراد الله به خيرًا ٨٥

أركان التوحيد ٨٧



تعظيم الله يوجب التسليم له سبحانه ٨٩

تعظيم الله يوجب التوكل عليه سبحانه ٩١

جود الله مدعاة لتعظيمه ومحبته سبحانه.. ٩٢

جلال الرب سبحانه ٩٧

الحاجة إلى معرفة أسماء الله وصفاته ٩٩

ثمرات معرفة أسماء الله وصفاته ١٠٢

آثار تجلي الله تعالى لعباده بصفاته ١٠٣

تعظيم الله يوجب مراقبته سبحانه ١٠٦

من ثمار معرفة الله تعالى: الطمأنينة ١٠٩

أحوال قلوب المقرَّبين.. ١١٢

محبة الله مُعينة على تحمل الأذى.. ١١٦

ضعف تعظيم الله عقوبة ١١٧

وما قدروا الله حق قدره ١١٩

مشروع تعظيم الله هو مشروع دعوي يهدف إلى تعظيم الله جل وعلا في النفوس، وذلك بالتعريف به سبحانه وبأسمائه وصفاته، وبالدعوة إلى معاني تحقيق العبودية وبلوغ منزلة الإحسان، وبمعالجة المخالفات التي تنافي تعظيم الله وإجلال شعائره، وذلك كله من خلال إقامة الفعاليات، وإعداد المواد العلمية والدعوية، المقروءة والصوتية والمرئية.

وهذا الكتاب يمثل أول إصداراتنا المطبوعة، وقد حصدنا فيها من جنان كلام الإمام ابن القيم رحمه الله قطوفًا إيمانية، يأنس بها العبد في طريق سيره إلى ربه ومولاه، وبذورًا ندفعها إلى الدعاة والمربين والآباء وغيرهم؛ ليغرسوها في تربة قلوب الشباب؛ لتثمر إيمانًا وتعظيمًا، إجلالًا وإخباتًا، عملاً وأخلاقًا.

0 5 0 9 6 8 7 5 4 4

/ HONOURINGALLAH

WWW.HONOURINGALLAH.COM



